عظمة الشخصية المحمدية

دراسات فى السيرة النبوية الخالدة

دكتــور

محمد عبد المنعم خفاجى

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

عظمة الشخصية المحمدية

دراسات فى السيرة النبوية الخالدة

عظمة الشخصية المحمدية

دراسات فى السيرة النبوية الخالدة

د. محمد عبد المنعم خفاجى

كمبيوتر: (دار الوفاء)

طباعـــة: دار الوفاء لدنيا الطباعـــة والنشـــر

ش ملك حفنى قبلى الســـكة الحديـــد

بجوار مساكن دربالة - بلوك رقم ٣

رقم البريد: ٢١٤١١ - إسكندرية

رقم الإيداع: ٢٣٨٢ / ٢٠٠١

الرقم الدولى: 5 - 122 - 327 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

- ١ -

محـــمد رســـول الله

صلى عليـه وسـلم فـى الأوليـن

وصلى عليه وسلم فـى الآخرين

وصلى وسلم عليه إلى يوم الدين

وماذا أقول به وقد قال الله عز وجل فى نبيه العظيم:

"ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين، وكـان الله بكل شئ عليما".

الأحزاب - ٤٠

وقال عز وجل:

"يا أيها النبى، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًـا إلى الله بإذنـه، وسراجًا منيرًا".

الأحزاب ٤٥، ٤٦

وقال تعالى:

"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

الأنبياء - ١٠٧

وقال جل شأنه:

"إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم".

يس - ٣، ٤، ٥

وقال تبارك وتعالى:

"ورفعـــنا لـك ذكـرك".

سورة الشرح – ٤

وقال عز شأنه:

"ما ودعك ربك وما قلا، وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث".

سورة الضحى ٣ – ١١

وقال تعال:

"واصبر لحكم ربك، فإنك بأعيننا، وسبح بحمد ربك".

الطور – ٤٨

وقال الله تبارك وتعالى:

"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. وذكر الله كثيرًا".

الأحزاب – ٢١

ماذا يقول هذا القلم الضعيف الهزيل بعد أن قال الأولون والآخرون. وبعد أن ألف المؤلفون في الشخصية المحمدية آلاف الآلاف من الكتب والبحوث والدراسات ما ألفوا. مما حفظ الزمن جانبا منه، وذهب بكثير منه إلى الضياع والفقدان.

عظمة الشخصية المحمدية لا يمكن أن ينكرها منكر، أو يجحدها جاحد. عظمة الشخصية المحمدية، كتب عدة أسفار مطبوعة عنها، وبقى بعض أسفار أخرى لم تطبع بعد، وأرجو من الله عز وجل أن يقدرني على نشرها وخروجها لأيدي الناس.

– ٢ –

وبعد فهذا الكتاب في سيرة رسول الله يتناول أطرافا من هذه السيرة الحبيبة، التي يعجز الجبابرة من العلماء والكتاب، والمؤلفين، والمفكرين والمؤرخين

عن استكناه سرها، والوصول إلى أعماق غورها، واستيضاح أمرها، واستكشاف سحرها ونورها وجلالها.

إن القلم ليقف عند حدود الشخصية المحمدية، وإن الفكر ليكل إذا ما حاول إضاءة الحقائق للقراء والدارسين والباحثين.

- ٣ -

يا رسول الله.

يا نبي الأمة.

يا من تلقى الوحي من رب العزة.

يا داعيا إلى الله وإلى الإسلام وإلى الإيمان.

يا مرسلا بالنور والرحمة للعالمين

يا دعوة آدم ونوح وإبراهيم واسماعيل وعدنان وهاشم وعبد المطلب.

يا من أشرقت الدنيا بنوره، وأضاء الكون بحكمته ورسالته.

يا من كرَّم الإنسان، وحرَّر العبيد، وناصر المظلوم، ووقف في وجه الظالمين، ودافع عن حقوق الإنسان، ودعا إلى العلم والعمل والبر والخير والرحمة والبناء والتقدم وتحمل المسئولية، والنهوض بالأمانة، وكان قرآنا يمشي بين الناس.

أقول ومهما قلت فإني عاجز عن أن أقول:

إن رسالتك في عصر الظلام والطغيان والفساد، لا تزال هي رسالتك إلى عالم اليوم الذي يدّعي التقدم والحضارة والسلام والرخاء للبشر أجمعين، وهو الذي يهدم كل القيم الإنسانية التي اعتزت بها الإنسانية في ظلال الإسلام أمدا طويلا.

فسلام عليك

وولاء نرفعه إليك

ودعاء نقدمه بين يديك

أن يعز الله الإسلام والمسلمين.

عظمة الشخصية المحمدية

أنحدثك عن عظمة الشخصية المحمدية؟

أنحدثك عن الشمس مشرقة فى رائعة النهار؟

أنحدثك عن البدر منيرًا فى وسط السماء؟

أنحدثك عن ملحمة المجد والجلال التى تمثلها سيرة نبى الهدى ورسول الإسلام؟

لقد تحدثت عن ذلك كله عشرات الألوف من العلماء والباحثين. ومن أسفار كتب التاريخ قديمًا وحديثًا، ومن رجال الديانات المختلفة، ومن كتاب غير مسلمين فى الشرق والغرب، ومن صانعى التاريخ والحضارة، ومن قادة وزعماء وحكماء تحدثوا جميعا عن هالات النور التى أحاطت وتحيط بالشخصية المحمدية على امتداد العصر والأجيال.

- عن عراقة الحسب.
- وعن جلال الخلق.
- وعن عظمة الذات.
- وعن سمو السلوك.
- وعن تحمل المسئولية.
- وعن أداء الأمانة.
- وعن كثير من أسباب وشواهد العظمة فى حياة سيد الأنبياء ميشيل هارت عده الشخصية الأولى فى عداد المائة الخالدين من قادة العالم فى القديم والحديث.

توماس كارليل عدّة بطل الأبطال فى العالم كله.

لامارتين عده أعظم العظماء، لعظمة المقصد مع ضآلة المقاصد. وضخامة النتائج.

الدنيا كلها تحدثت عن عظمته.

العالم كله وقف مبهورا أمام جلال شخصيته.

وحسب الرسول الأكرم، محمد بن عبد الله قول الله عز وجل فيه:

"ورفعنا لك ذكرك" (٣ - الشرح)

وقوله عز وجل فى أمره: "ولكن رسول الله وخاتم النبيين" (من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب)

صدق الله العظيم

مكة السلام

مكة المجد فجرها نشوان — وبالدهر والربى تزدان
حدث مكة السلام به غنـ — ـت، وغنى غناءها الركبان
ومشت فى الدنيا الرواة به — فى فمها طاب السحر والالحان
ونشيد القرون ملحمة الأجـ — ـيال غنى انتصارها الإنسان
قد أتى الصبح فجره لاح، والنو — ر بدا فى الظلام. والربان
أحمد الحق والهدى والموازيـ — ـن أتى فاستوى به الميزان
نذكر الميلاد العظيم ومجدا — ارتدت عزة به عدنان
نذكر الوحى والرسالة والديـ — ـن أتى داعيا له القرآن
وتولى الأفيال، باد الطواغيـ — ـت، فأين العروش والايوان
وعنا المالكون، لا قيصر يسـ — ـقى المنايا، ولا أنوشروان
ومضى هوذة وأبرهة والـ — ـحارث الغسانى والنعمان
هو هذا الإسلام يختال فيه — كل حر، ويزدهى الإيمان

ميلاد الرسول الأمين ٢٠ ابريل ٥٧١.
هجرة الرسول الأمين ٢٠ سبتمبر ٦٢٢.
وفاة إبراهيم ابن الرسول ٢٧ يناير ٩٣٢.
وفاة الرسول ٧ يونيو ٦٣٢م.

مكة نقطة المركز الأرضى

اثبت العالم المصرى د. حسين كمال الدين بالبحث العلمى أن مكة المكرمة هى مركز اليابسة فى العالم الآن وكذلك فى العالم القديم قبل اكتشاف أمريكا واستراليا، معتمدًا على مجموعة من الجداول الرياضية المعقدة، استعان فيها بالكمبيوتر.

فمكة هى مركز الأرض علميًا وهذا يضئ لنا السر فى اختيار ابن مكة اليتيم ليكون رسولاً للعالمين..

يوم الذكرى العظيم

(١)

يا يوم الذكرى العظيم، ذكرى ميلاد الرسول النبى الكريم.

سلام عليك فى الأولين

وسلام عليك فى الآخرين

وسلام صدقٍ عليك إلى يوم الدين

فى صباحك المشرق البهى، وفى ضحى يومك المتلألئ السنى.

نذكرُ بالفخر والحمد فضلك على الإنسانية، وعلى الإنسان، وعلى كل الأمم والشعوب، وعلى مسيرة التاريخ والحضارة، وعلى كل الحياة، وكل من استظلوا بظلال الحياة، منذ يوم ميلادك الأكرم حتى تقوم الساعة.

ومن جلالك وجمالك وشريعتك وسنتك، نستمد النور الذى يضى ظلمات الطريق، ونستمد العزم الذى يسير بنا إلى نهايات التوفيق. ونستمد الأمل فى النصر على أعداء الحياة والإنسانية والسلام.

(٢)

حمدا لله له الحمد والثناء، ومصدر كل النعم والآلاء، والصلاة والسلام على خير خلق الله، وأكرمهم على الله، أشرف النبيين، وخاتم المرسلين، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين.

فى جلال الذكرى وعظمتها، وجمال الأعياد وروعتها. نذكر الميلاد النبوى العظيم، الذى هز العالم، وحول مجرى التاريخ، وبدل سير الحياة الإنسانية وأضاء بنور الإيمان كل مكان وزمان.

وفى مطلع كل صباح، ومشرق كل فجر، نذكر مشرق الذات المحمدية، التى لا زالت الإنسانية تشدو بجلالها، وتترنم بجمالها، وتسبح فى أنهار نورها وبهائها وضيائها وسنائها.

منذ ألف وأربعمائة عام والشعراء يقولون فى الذات النبوية. والعلماء والادباء والكتاب والمفكـرون والمؤرخـون والفلاسـفة يحومـون حـول شمسـها ولا يقـتربون. ويدورون حول فلكها ولا يدنون، ويقولون فى وصف عظمتها وروعتها ولا ينتهون.

سبحانك ربى. أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن. بعثت رسولك الكريم بالوحى العظيم، على فترة من الرسل إلى الناس كافة. فكانت البعثة وكان الوحى. وكان المبعوث، رحمة الى العالمين. وخيرا شمل الإنسانية والناس أجمعين. وكان ذلك مقدمة لانتشار الإسلام وامتداد حكم المسلمين، فى كل مكان وكل بقعة فى الأرض.

سبحانك ربى: على امتداد أربعة عشر قرنا من الزمان. يذكر الناس ويروى التاريخ، وتدوى المنابر، بذكرى ميلاد رسول الله للبشرية ونبى الإنسانية وخاتم رسل الله. ولا ينفد للقائلين قول ولا يحيطون بكل ما منحه الله عز وجل لصفوة خلقه محمد عبد الله من خير وفضل ..

سبحانك ربى: إن الرسالة التى نزلت على رسولك الأعظم، ونبيك الأكرم، هى التى حررت الإنسان من الخوف ومن الوثنية، ومن الجهل والضلالات والخرافات والأوهام، وحلقت به فى سماء التوحيد والعزة والنور والعمل والإخاء والمساواة والحرية. ورفعت من قيمة العمل والتقوى والإيمان. وحطمت كل تقاليد الوثنية والجاهلية وشعارات الشرك والظلم والطغيان.

سبحانك ربى كرمت المسلمين برسول الإسلام، وعظمت شأن المؤمنين بشريعة الإيمان.

فلك الحمد فى كل آن ..

ولك الشكر على ما شملت به العالم كله من إحسان. وصلاة وسلاما دائمين على نبيك المصطفى وحبيبك المجتبى، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. وصدق الله العظيم فيما يقول فى كتابه الحكيم ملخصا لمجمل حياة رسول الله:

"والضحى، والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث".

وصدق الله العظيم فيما يقول منوها بفضل الله على رسول الكريم "ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك. فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب".

(٣)

ذكرى ميلاد محمد بن عبد الله، خاتم المرسلين، وسيد النبيين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

ذكرى البعث الأكبر، الذى شمل الإنسانية بميلاده، وبما انتهى إليه الميلاد من البعثة المحمدية الشريفة.

ذكرى هذه المعجزة الكبرى التى أرادها الله عز وجل لخير الدين والدنيا والآخرة والأولى.

وماذا تعنى هذه الذكرى؟

إن الإسلام الذى حرر الضعفاء والأرقاء والمستعبدين، ورفع من كرامة الإنسان على الأرض، وأعز الشرف والفضيلة، والقيم والآداب والأخلاق، وأعلى من شأن العقل والفكر والتقدم والبناء، وحقق أروع الانتصارات فى كل مجالات الحياة على طول عصور التاريخ، وأقام دولة سامقة عظيمة لم يتح لأعظم القواد والملوك والحاكمين أن يقيموا مثلها أبدا، والذى قام على التوحيد المطلق، وحارب الشرك والوثنية والجاهلية الأولى، وبنى أعظم الحضارات، ونشر مختلف الثقافات بين الناس كافة.

هذا الدين العظيم، الذى حمل أروع رسالة فى الحياة، وأعظم عقيدة عرفتها الإنسانية، وأكرم شريعة نزلت من السماء إلى الأرض.

هذا الدين الخالد .. لا يزال قادرا على أن يؤدى دوره في الحياة، ورسالته بين الناس. يسعد ولا يشقى. يهدى ولا يضل. يجمع ولا يفرق. يبنى ولا يهدم. يرفع من شأن العقل. ويعلى من أمر الحياة، وينظم من أمور الناس.

هذا الدين السماوى الجليل .. لا يزال كما كان - وكما نزل من السماء - قادرًا على أن يصنع المعجزات، ويأتى بأضخم الآيات، ويبنى أكبر الحضارات.

هذا الدين الإلهى الأمجد، لا يزال فى قدرته أن يقود العالم إلى شاطئ السلام، والخير والحرية والرفاهية.

ونحن المسلمون نذكر فى هذه الأيام وفى لحظة الميلاد الكريم النبوى. ما حققه رسولنا الأجل الأكبر من انتصارات على امتداد الأيام. وما صنعه من بطولات فى نضاله لقوى الشر والشرك والضلال والوثنية.

ونذكر مع ذلك هذه الليلة العظيمة التى أشرق فيها النور الإلهى على الأرض بميلاد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

ذكرى وما أروعها من ذكرى، تذكرنا بعظمة الإسلام ونبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم.

سلام على محمد فى العالمين.

سلام عليه فى الأولين.

سلام عليه فى الآخرين.

رسول أمين، مرسل من رب العالمين، بوحى صادق كريم عظيم.

أمره الله بتبليغ الرسالة إلى الناس، على الرغم من كيد المشركين وبهتان الكافرين، وزيف الجاحدين، يقول الله تعالى لنبيه محمد صلوات الله عليه فيما يقول:

"فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون" (٢٩ الطور)

ثم يفسر الكتاب الحكيم افتراءات المشركين، واحد بعد الآخر فيقول عز وجل:

"أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين"

"أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون؟"

"أم يقولون تقوله، بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين"

"أم خلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون؟"

"أم خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون؟"

"أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون؟"

"أم لهم سلم يستمعون فيه. فليأت مستمعهم بسلطان مبين؟"

"أم له البنات ولكم البنين؟"

"أم تسألهم أجرا، فهم من مغرم مثقلون؟"

"أم عندهم الغيب فهم يكتبون؟"

"أم يريدون كيدًا، فالذين كفروا هم المكيدون؟"

"أم لهم إله غير الله، فسبحان الله عما يشركون".

وعظمة القرآن هذا تتبدى لنا فى أنه لم يترك للمشركين شيئا أو جانبا من الشبهات إلاّ رد عليه، وفندَ افتراءاتهم فيه، فماذا بعد ذلك كله.

سلام على محمد فى العالمين، سلام عليه فى الأولين وسلام فى الآخرين رسول السلام، رسول الإخاء الإنسانى، رسول الحرية والتحرير، رسول البشرية كلها، رسول العلم والمعرفة والحق والعدل والشورى والإحسان والصدق والأمانة والنزاهة والطهارة والشرف والعفة.

سلام على محمد فى العالمين، سلام عليه فى الاولين، وسلام عليه فى الآخرين، وسلام عليه إلى يوم الدين.

لقد رفع كرامة الإنسان، وأعزه، وشرفه وجعله كفوا لتحمل المسئولية، وأهلا لتحمل الحقوق والواجبات، ولأدائها، وعاش ما عاش يصل الرحم ويحمل الكل، ويعين على نوائب المعروف، ويقضى بالعدل بين الناس.

اتصف بالعفة والطهارة والنزاهة والشرف ودافع عن حق المظلوم، وأنصفه من الظالم، ودعا إلى التعفف عما فى أيدى الناس، وإلى طهارة اليد، وطهارة القلب والجوارح وبخاصة اللسان، سلام علىَ محمد فى يوم الدين لقد صنع فجر الإنسان، وبنى الحضارة ووضع دعائمها وأصولها فى الشرق والغرب، وخاصم الشرك والتقليد والجمود، ودعا إلى حرب الطغيان والعدوان والفساد والباطل والشر، وإلى كل فضيلة وإلى نبذ كل رذيلة.

سلام على محمد فى العالمين.

سلام عليـــه فى الأولـــين.

سلام عليه فى الآخـــريـن.

وسلام عليه إلى يـــوم الديـن.

نبى الرحمة.. نبى الحب والتعاطف والتعاون والتآخى بين الناس.

نبى صنع جيلاً، وربى قادةً، وعلم شعوبًا وأممًا، وقاد الإنسانية إلى عصر الرخاء والتقدم والرفاهية والسلام، ونشر العلم والمعرفة والثقافة بين الناس. إنه أعظم رجل فى التاريخ وأصدق إنسان فى الدنيا وأوفى إنسان بعهده وأبر إنسان بذمته.

إنه الكريم فما ينتهى كرمه، والشجاع فما كانت تقصر شجاعته والعادل فما كان يحيف على أحد.

إنه النبى الأمى العربى الهاشمى.

أنه محمد بن عبد الله، يتيمًا ولد وعاش، حتى أوحى إليه برسالة السماء، من قباب التوحيد والنور فى حراء.

في ليلة المولد الشريف(*)

لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ارتجس[1] ايوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك مائة عام، وغاضت بحيرة سارة، حيث رأى الموبذان[2] .. ابلا صعابا، نقود خيلا عرابا، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها.

وأفزع كسرى ما رأى، لكنه تصبر تشجعا، ثم رأى ألا يكتم ذلك عن وزرائه ومرازبته[3] ... فلبس تاجه، وقعد على سريره، وجمعهم اليه. فما اجتمعوا أخبرهم بالذى بعث إليهم فيه ..

فبينما هم كذلك، إذ ورد عليه كتاب بخمود النار، فازداد غما الى غمه فقال الموبذان: وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا، وقص عليه الرؤية فى الإبل والخيل، فقال له فأى شيء يكون هذا يا موبذان؟.

- ٢ -

قال الموبذان: ما عندى فيها ولا فى تأويلها شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدثان فكتب عند ذلك: "من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر. أما بعد، فوجه إلى رجلا عالما بما أريد أن أسأله عنه".

فوجه إليه النعمان أحد الكهان، وهو عبد المسيح بن عمرو الغسانى فلما قدم عبد المسيح على كسرى قال له: عندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرنى الملك، فإن كان عندى علم وإلا أخبرته بمن يعلمه له. فأخبره بما رأى.

فقال: علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام، يقال له سطيح ..

قال كسرى: فاته، فأساله عما سالتك، وأتنى بجوابه ..

فركب عبد المسيح راحلته حتى قدم على سطيح، وقد أغشى على الموت، فسلم عليه وحياه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه ..

ثم أفاق سطيح من غشيته. فرفع رأسه، وقال: عبد المسيح على جمل مشيح (مسرع) جاء إلى سطيح. وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك ساسان. لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلا صعابا. تقود خيلا عرابا. قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد ثم قال: يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة (النبي صلى الله عليه وسلم) وفاض وادي السماوة. وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار الفرس فليست الشام لسطيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات، على عد الشرفات، فكل ما هو آت آت، ثم قبض سطيح مكانه ..

وقدم عبد المسيح على كسرى، وأخبره بقول سطيح، فقال، إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا تكون أمور، ويدور الزمان، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى زمن عثمان بن عفان. رضي الله عنه.

وجاء الميلاد المحمدى

الدنيا تعيش عيشة الفقر!

والحياة حياة الخوف والحرمان والعبودية ..

والأمم والشعوب تخضع لحكم الظلم، وشريعة الغاب. لا قانون ولا مواثيق تؤمن بحقوق الإنسان .. ولا سلام بين الناس ..

الوثنية هي الدين الغالب. والظلام يملا الآفاق رهبة وفزعا والقوة لا الحق شعار كل إنسان يعيش على ظهر الأرض.

وجاء الميلاد المحمدى الجليل بشيرا بعهد جديد من السلام والامان والإيمان ومن السعادة والحق والحرية. ومن الإيقان والإحسان والتعاون والتكافل بين الناس ..

الدين دين الله، والتوحيد شريعة السماء إلى الأرض والعلم فرض واجب، واحترام الحقوق والمحافظة على الحرمات واجب على الناس جميعا ..

واحترام الدين المحمدى، دين الإسلام، وشريعة القرآن، كل حق، لكل إنسان .. احترام المرأة والرجل، الكبير والصغير، الخادم والمخدوم، الحاكم والمحكوم، الزارع والصانع والفلاح والعامل والطفل والشيخ..

وأكد حقوق الإنسان، وشرع شرائع العدل والإحسان بين الناس. ونشر الرخاء والسلام فى الأرض كافة.

وجاء الميلاد النبوى، فعم النور كل الآفاق وسعدت به الدنيا واعتزت به الأرض واستبشرت به ملائكة السماء ..

وجاء الميلاد المحمدى ليحظى الفقير بحقه والمرأة بحقها، والأجير بحقه. ولكل إنسان على ظهر الأرض حقه فى الحياة.

وجاء الميلاد النبوى العظيم ليقول للسادة: لم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟.

وليقول لهم: إن اقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له. وإن اضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه.

وجاء الميلاد النبوى الجليل ليعلن فى الناس: الله أكبر. الله أكبر ولا احد أكبر .. سن المسئولية. ولا حق بغير واجب، ولا حياة بلا إيمان ..

وجاء الميلاد النبوى العظيم. فجاءت البعثة المحمدية. وجاءت الدولة والسيادة، والعزة للإسلام، لله ولرسوله، وجدت المدينة والحضارة والتقدم. وجدت انتصارات أبطال الإسلام فى كل مكان وكل زمان واخذت الحضارة الإسلامية تظلل الناس جميعًا، فى كل صقع، وكل مكان.

وجاء الميلاد المحمدى. فأعلنت السماء للأرض أن العزة لله ولرسول وللمؤمنين .. وكان الله بكل شىء محيطا.

الوليد اليتيم

الوليد اليتيم الذى عز الدنيا، ونضر وجه الحياة، ودعا إلى أكرم دين وأشرف عقيدة، وأجل رسالة..

الوليد اليتيم ..

الذى اصطفاه الله برسالته وكرمه بأن يكون آخر رسله إلى الأرض، وخاتم أنبيائه إلى العالم..

الوليد اليتيم ..

الذى تلألأ فى وجهه نور الوحى وأشرقت فى ثغرة كلمات السماء، ودوت فى فمه آيات الذكر الحكيم..

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وابن أمه الطاهرة الكريمة وما أجل وأكرم، وما اعز وأعظم، وما أنبل وأكرم نسب ارتدى به منكباه، وعز به بين الناس العظماء..

محمد بن عبد الله هذا الوليد العظيم، الذى مات أبوه، وأمه حاملة به، والذى حمله عبد المطلب بعد مولده يدخل به الكعبة وقام يدعو الله، ويشكر له ما أعطاه.

هذا الوليد اليتيم، اصطفاه الله برسالته وكرمه بنبوته وجعله آخر الأنبياء، وخاتم المرسلين، وأنزل عليه القرآن الكريم كتاب الرسالة الخالدة وميثاق الدعوة التالدة، إلى أشرف دين، وأكرم رسالة، وأنبل عقيدة..

وفى ميلاد محمد نذكر شريعة الله الخاتمة، ودينه الباقى على وجه الزمان.

هذه الذكرى العاطرة.

هذا الميلاد الأكرم.

هذا البدء الحق للإنسانية والعالم والبشر.

هذا البعث الإلهى التليد .. وهذه الحضارة التى عاش فى ظلها وظله نور الحياة أجيالا طوالا .. عم الشرف الأكبر، أنقذ الإنسانية من حيرتها ورفع من كرامة الإنسان والحياة، وأثرى القيم والمثل والفضائل والأخلاق الشريفة التى أصبحت نبراسًا يضئ سبيل العيش وطريق الناس فى الأرض ويهديهم إلى الصراط المستقيم. إلى الخير والشرف والحرية والكرامة والإخاء والعطاء ..

فلنحيى هذا اليوم المجيد المشهود ولترتفع به مثله النبيلة إلى الأمل المنشود.

رضاع الرسول

لم ترضع ثويبة محمداً إلا أياماً، ثـم حضـرت المراضـع يلتمسـن الأطفـال ليرضعنهم، ويعرضن أنفسهن على الأمهات ..

وكانت الأمهات من نساء السادة يدفعن بأولادهن الى هؤلاء المراضـع. ويغدقن عليهن الكثير من الأجر والبر. وكانت المراضع يبحثن عن الرضعاء ذوى الآباء الأغنياء طمعاً فيما ينلن من برهم ونفحاتهم.

ومن قبائل البادية من لها فى المراضع شهرة، ومن بينها قبيلة بنى سعد.

تخيرت الأمهات المراضع لأطفالهن، واحتضنت كل مرضع طفلا، إلا مرضعا واحدة صدت عنها الأمهات، لما يبدو عليها من ضعف وهزال. وهى حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ..

وبقى طفل واحد صدت عنه المراضع، حينما علمن أنه يتيم. هو محمد ابـن عبد الله ..

حصلت كل مرضع على رضيع من أبناء السادة الأغنياء والأشراف الذين يرجون من ورائهم خيرًا وبرًا، إلا حليمة، فإنها عادت إلى زوجها الحارث ابن عبد العزى بغير طفل، فقال لها زوجها: ما بالك يا حليمة قد عدت من دون صاحباتك صفر اليدين؟.

قالت: ما بقي من الرضعاء إلا طفل يتيم، ليس له إلا جده وأمه. فزهدت فيه، كما زهدت صواحبي .. وقلت ما يصنع لنا جده وأمه، وحالنا كما تعلم في هذه السنة الشديدة .. لكنى - والله - ما زلت مشفقة على هذا اليتيم منذ رأيته. وما زالت نفسي تراودنى أن أعود إليه، فآخذه حدبا عليه، وتعلقا به، لا رغبة فيما يعود علينا بسببه من بر .. وإني - والله - لأكره أن أرجع من بين صواحبي وليس معي رضيع مثلهن .. لأذهبن إلى ذلك اليتيم فآخذه.

فقال لها زوجها: لا عليك أن تفعلي .. عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة!

مـــوت آمنـــة

رجعت آمنة بطفلها من المدينة إلى مكة. فلما قطعت به من الطريق نحو مرحلة فاجأها الموت عند قرية الأبواء فدفنت هناك. ورجع محمد وعيناه تفيضان بالدمع. وقلبه يمتلئ بالأسى والحسرة ..

ولم تذهب هذه الحادثة من خياله قط. وكان يذكرها وهو رسول الله ..

قال عبد الله بن مسعود: إن رسول الله خرج يوما ينظر الى المقابر. وخرجنا معه. فأمرنا أن نجلس. ثم ذهب هو يتخطى القبور حتى انتهى الى قبر فناجاه طويلا. ثم ارتفع نحيبه - صلى الله عليه وسلم - حتى بكينا لبكائه. فلما اقبل علينا تلقاه عمر ابن الخطاب. فقال: يا رسول الله ما أبكاك؟ لقد أبكانا وافزعنا. فجلس الينا وقال: أفزعكم بكائي؟! إن هذا القبر قبر آمنة بنت وهب. واني استاذنت ربي في زيارتها. فأذن. فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة. فذلك الذي أبكاني!

محمد فى يثرب

قبل أن يتم محمد السادسة ذهبت به أمه إلى يثرب، ليزور أخواله بنى عدى ابن النجار، وصحبته فى هذه الرحلة حاضنته أم أيمن (وهى بركة الحبشية) جارية أبيه التى خلفها له مع ما خلف من ميراث قليل. فلما نزل على أخواله احسنوا وفادته، وأكرموا مثواه. فأقام عندهم شهرًا جاب فيه أرجاء المدينة. ورأى كثيرا من معالمها، وخالد كثيرًا من أطفالها، وأنس إليهم، وأنسوا إليه. وانطبعت فى ذهنه صورة حية للمدينة ببساتينها وحدائقها، ونخيلها ومزارعها وينابيعها الجارية وقصورها العالية، ومياهها العذبة، فلم ينسها قط، وظلت هذه الصورة الجميلة مطبوعة فى نفسه حتى هاجر إليها، وهو رسول الله، فكان يذكر لأصحابه كثيرًا من معالمها وكثيرًا من أحداث الطفولة وذكرياتها.

وفى هذه الرحلة رأى محمد قبر أبيه، وبكى حين رأى أمه تبكى عند هذا القبر ولعله أحس ساعتئذ لذع الجزع والحزن فى فؤاده، وعرف معنى اليتم ..

طفولته فى البادية

تعود حليمة إلى ديار بنى سعد، وترى من بركة هذا اليتيم، فى كل يوم، ما لم يكن يخطر لها ببال: خيرًا يدر عليها من كل ناحية، وبركات تحل عندها فى كل شىء، حتى مضت سنتا الرضاع على محمد .. ترضعه حليمة، وتحضنه بنتها الشيماء .. وجو الصحراء النقى، وعيش البادية الخشن، يسرعان به إلى النمو.

وآن أن تعود حليمة بمحمد الى امه وقومه، وهى تتمنى الا تعود، وتود الا يفارقها فأتت آمنه، وقالت لها: الا تركت محمدا عندى حتى يكبر، فانى اخشى عليه هواء مكة.

وما زالت بها ترجوها وتستعطفها، وتذكرها بما كان يلوث جو مكة - حينئذ - من وباء ومرض يخشى منهما على محمد، حتى قبلت آمنة أن تتركه لها ..

عاد محمد إلى الصحراء، يلعب فوق رمالها، ويرتع على حصياتها ويرعى الغنم مع أترابه وأخوته من الرضاع، فى جو نقى خالص، حتى أتم من عمره سنوات خمسا، فعادت حليمة إلى آمنة، وردت إليها وديعتها الغالية.

محمد يرعى الغنم

كان محمد دقيق الحس، مرهف الشعور، وكان - على صغر سنه - يدرك ثقل الحمل على عمه أبى طالب، ويدرك ما هو عليه من قلة المال، وكثرة العيال، فكان دائم التفكير فى وسيلة يخفف بها هذا الحمل عن عمه. لكن ماذا يفعل صبى صغير، طرى العود فى بلد يعتمد أهله على التجارة، والتجارة تحتاج إلى سفر بعيد شاق، وتتطلب الدربة الواسعة والمران فى البيع والشراء؟!

لو كان محمد فى يثرب لاستطاع أن يفلح فى أرضها الخصبة، أو يعمل بستانيا فى أحد بساتينها الكثيرة، أو صانعا فى إحدى الصناعات التى يتخذها أهلها من النخيل والأعناب .. لكنه فى مكة، ومكة بلد فقر فى واد غير ذى زرع، تحيط به الجبال الصخرية الجرداء، فلم يكن بد لمن يريد العمل من الصبيان إلا أن يرعى الغنم، لأنه العمل السهل الذى يلائم الصبيان ويناسب قدرتهم ..

ورعى رسول الله الغنم، ليعين عمه أبا طالب، وكثير من الأنبياء بدءوا حياتهم برعاية الأغنام، وختموها برعاية الخلائق وهداية الناس ..

رسول الإسلام
راعى الغنم الذى يفخر به العالم
والإنسانية على امتداد عصور التاريخ

إنها عظمة التاريخ.

إنها عظمة الذات.

إنها عظمة الله يهب جانبا منها لمن اصطفاه من خلقه - وخصه برسالته - بل بأعظم رسالات السماء إلى الأرض - وإلى الدنيا كافة - وإلى الخلق أجمعين.

وهل أتاك حديث راعى الغنم الصغير اليتيم - محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف؟ الذى رعى الغنم - ثم رعى الإنسانية كلها. والدنيا بأسرها. والشعوب كافة منذ بعثه الله برسالته إلى اليوم. وإلى ما بعد اليوم حتى تقوم الساعة.

إنه هذا الراعى المتألق الوجه، المبتسم الثغر، المضىء الأسارير، الذى أورثه نسبه حسبا على حسب، وشرفا على شرف، وعزة فوق عزة. والذى فقد حنان الأب. ولكنه لم يفقد عظمة الشخصية حتى فى يتمه، وحتى مع صغر سنه. بل ازداد جلالا فوق جلال، وعاش رجلا فى ثياب طفل يفخر به الأطفال والرجال جميعا.

هل أتاك حديث هذا الراعى الصغير، يرعى قطيعا من الغنم فى صحارى مكة ووديانها، والعصا على كتفيه، والبشر فى وجهه، والسماء قبلته، والله - جل جلاله - فى قلبه وروحه وجدانه وأعماق مشاعره، هو نشيده وتسبيحه وابتهالاته ونجواه؟

الدنيا كلها من حوله ترنو إليه، والملأ الأعلى يحوطه بالرعاية، والسماء تضىء شعاب قلبه وروحه.

يا لعظمة الراعى، ويالجلال الطفولة، ويالروعة الإنسان. ويا لعبقرية الشخصية.

محمد بن عبد الله، الذى عاش فى ديار بنى سعد نحو أربع سنوات فى بيت مرضعته حليمة السعدية، ثم عاد إلى مكة، وإلى والدته السيدة آمنة، وإلى رعاية

جده عبد المطلب تشمله عين الله، والذكريات والأحساب والعراقة، بالرعاية والمجد والجلال، وتحوطه عناية الخالق القادر بالعزة من كل جانب.

وتموت أمه وهو فى السادسة من عمره بالأبواء بين مكة والمدينة، ولما بلغ الثامنة من عمره توفى جده عبد المطلب نحو عام ٥٧٩م، وتولى رعايته من بعده عمه أبو طالب، وحين بلغ العاشرة من عمره كان قد تفتح شبابه، واستقام عوده، ولاحت عليه مخايل الرجولة المبكرة الخالدة، فأخذ يسير فى طريق الجد والعمل، وحين أراد أقرانه أن يسمروا ذات ليلة، وأن يأخذوه معهم أخذه سبات طويل.

ويقول صلوات الله عليه: لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمنى لاكم ما أراه "لكمة شديدة"، وقال لى: شد عليك إزارك.

إنها تربية السماء، وعين الله ترعاه.

ويقول ابن الجوزى: كان رسول الله فى زمن الصبا يبغض الأصنام، ولا يلتفت إليها، وكان أهله يسألونه أن يخرج معهم إلى ناحيتها، فلا يفعل ولا يقرب منها - ويعيبها - (الوفا ١٣٨/١).

وعن ابن عباس[٤] عن أم أيمن قالت: كان "بوانة" صنما يحضره قريش يوما فى السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله أن يحضر ذلك العيد مع قومه - فيأبى - حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن يا محمد إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا، فقالت عماته: ما دهاك؟! قال: إنى أخشى أن يكون بى لمم، فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك، ما الذى رأيت؟ قال: إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى: وراءك يا محمد لا تمسه. قالت: فما عاد إلى عيد لهم.

ويقول الدكتور رءوف شلبي في كتابه "بشائر النبوة" ص٢٣٨ نقلا عن كتاب "محمد المثل الكامل" لمحمد جاد المولى ص١٢ وهو ما ذكره صاحب كتاب "الوفا" "ج١ ص١٣٩":

"لم يكن محمد في نشأته جاريا على المألوف في الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون، ويسمعون ويحسون في بيئتهم، ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته، فنشأ على أكمل ما تتحلى به النفوس من جميل الصفات".

كان صلوات الله عليه في طفولته إنسانا كبير العقل، رزين الشخصية، عظيما في سلوكه، ينشد الحنيفية دين ابراهيم - عليه السلام - ويمشي على نهجها، كان معدا لرسالة عظمى يبلغها قومه والناس أجمعين.

* * *

في هذه السن المبكرة بدأت رحلته مع رعي الاغنام، ومع التأمل، ومع جوب الصحراء، ومع التفكير العميق.

رعي الغنم مهمة يسيرة عسيرة، وعمل شاق سهل، ومسئولية كبيرة وغير كبيرة .. ولكنه تربية ومدرسة من مدارس الحياة، وتهذيب للنفس، وتعويد لها على تحمل الأمانة، والنهوض بالمسئولية، والتفكير بعقل الإنسان المسئول عن حياته، الذي يحمل على كاهله أعباء الراعي الأمين، والإنسان المسئول، ورجل المهمة الصعبة.

هل كان رعي الرسول الأكرم للغنم عن فقر؟؟ لا أجد سندا لذلك، ولكنه كان حبا في استقلال الشخصية، وتعود المسئولية، والحياة مع الطبيعة والكون والوجود .. وكان كذلك نشدانا للسعادة الروحية.

يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ما من نبي من الأنبياء الا رعى الغنم" فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: "نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[٥].

ورعي الغنم ليس عمل مهانة وخضوع وفقدان شخصية، بل إنه بعكس ذلك تماما تربية للشخصية وإعزاز لها.

ويروى ابن الجوزى عن أبى هريرة عن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه -:

"ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم" - قال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم - كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة - انفرد بإخراجه البخارى[6] - قال السهيلى فى "الروض الأنف": وإنما جعل الله هذا فى الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق - ولتكون أممهم رعاياهم[7].

وقال ابن عقيل: لما كان الراعى يحتاج إلى سعة خلق وانشراح صدر - وكان الأنبياء معدين لإصلاح الأمم حسن هذا فى حقهم[8].

* * *

لقد كان مجتمع مكة آنذاك - أى فى الربع الأخير من القرن السادس الميلادى - مجتمع الصفوة من الأغنياء والمترفين، والتجار، الذين يعملون فى الرحلات التجارية بين مكة والشام واليمن، ويبيعون ويشترون، وتتدفق عليهم الأموال والأرباح من كل جانب.

وكانت الحياة فى هذا المجتمع تورث الإنسان السأم والملل. من الترف. الذى يعيشه الأبناء - ويعيشه معهم الآباء جميعًا؟ وكان الفرار منه إلى الحياة الطلقة الهادئة البسيطة إنقاذا كبيرا للنفس الإنسانية حتى لا تلوثها المادة بكل رغباتها وتطلعاتها الجامحة - وكان كذلك طلبا للطمأنينة والسعادة والراحة النفسية العميقة.

وكما رعى رسول الله - صلوات الله عليه - الغنم فى ديار بنى سعد طفلا صغيرا رعاها فى مكة طفلا كبيرا.

وكان الرسول الأكرم - أو قل: كان الطفل الشاب الرجل - محمد بن عبد الله يجد فى رعى الغنم متعة وأية متعة، فهو يصله بالسماء وبالله، وبالكون العظيم. وهو يحرر فكره من الجمود، ويحرر عقله من التقاليد، ويحرر حياته من التبعية.

وانظروا إلى خبر صغير نشرته "أخبار اليوم" الصادرة فى ١٠ من مايو ١٩٩٧م، يقول هذا الخبر بعنوان "السعادة فى رعى الغنم" - "يلجأ الكثير من الشباب الألمانى إلى عالم الأحلام - مديرين ظهورهم لعالم الواقع - على أمل العودة إلى

الحياة البسيطة فى رعى الأغنام - إذا ما أخفق الواحد منهم فى قصة حب، أو أصابه السأم من السباق المحموم على الدرجات العلمية فى الجامعة - وتقول ماريا ايبر سبرجر، وهى زوجة لراعى غنم يدعى ايبرسبرجر: أنها تتلقى مكالمات هاتفية كثيرة من طلاب أصابتهم الحياة العصرية بالتوتر - برغبتهم فى الفرار منها إلى حياة رعاة الغنم البسيطة التى لا تحتاج إلا إلى كلب أمين، وقطيع من الأغنام.

إن هذا الشعور من الشباب اليوم هو شعور الشباب بالأمس، شباب مكة الملولين من حياة الترف والمادة التى يعيش فيها أشراف مكة من قريش وأبناؤهم وبيوتهم - والراغبون فى الحياة مع الطبيعة - ببساطتها وسهولتها، وقلة حاجاتها واكتفائها بالضروريات من أمور العيش.

ووجد شباب الأنبياء والمرسلين فى رعى الغنم؛ تجديدا لنفوسهم وأرواحهم، ولصلتهم بالله الأعلى، وبالسماء وروحيتها، وبالكون المملوء بأسرار الله ومعجزاته وجلاله، وآثار قدرته.

ووجد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فى رحلته مع قطعان الغنم يرعاها فى شعاب مكة صلة وثيقة له بالله وبالإيمان وبشريعة التوحيد، شريعة جده الأعلى إبراهيم، وجده الأوفى إسماعيل.

يا لمجد هذه الشعاب الطاهرة التى مشى فيها سيد الأنبياء فى أوائل سن شبابه يرعى الغنم، يذود عنها الذئاب والكلاب الضالة، يقودها إلى نبات الكلأ والعشب، ويحوطها بمنسأته الحنون بالرعاية والتدبير.

الشعاب الجدباء تحولت إلى مراع ترعى فيها قطعان الغنم، التى يرعاها ابن عبد الله بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى، والأغنام العجاف صارت برعايته لها وحدبه عليها، سمانا مكتنزة باللحم والشحم، ونفس محمد تتألق فى جوانبها أضواء الإيمان والطهر والتوحيد، والطمأنينة والسكينة والابتهال والمناجاة للخالق العظيم.

* * *

وحين شب محمد وبلغ من القوة مبلغه ورأيناه وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره يخرج مع عمه أبى طالب فى قوافل قريش التجارية إلى الشام، فاتسعت رحلته

من شعاب مكة إلى أرض الشام. ومدن "بصرى" وتبوك وغيرهما. ثم وهو يعمل في قوافل التجارة مستقلا يتاجر في مال خديجة سيدة نساء قريش. ومحمد في ذلك - أيضًا - يحمل المسئولية - ويتأمل الكون العظيم - ويفكر بعقله: هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه "بل الظالمون في ضلال مبين" (لقمان - ١١) وكان ذلك كله وصلا له بفكر التوحيد، وإخلاص النفس لله وحده. لا شريك له. ولا اله سواه.

لقد أسلم محمد في كل أطوار حياته وجهه لله عز وجل. وأيقن أن التوحيد - وهو رسالة جده الأعلى إبراهيم - عليه السلام - يجب أن يعود إلى الارض. وإن الإيمان هو سر سعادة الإنسان. وهو الدواء لكل أمراض الإنسانية. وهو البلسم الشافي لكل أدواء المجتمعات البدوية. والمتحضرة معا على السواء.

وفي البيان الأول الذي ألقاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قومه في مكة برسالته إلى الناس كافة، بعد أن أمره الله - عزل وجل - بأن ينذر قومه، ويبلغهم رسالة الله، بقوله - عز وجل - "قم فأنذر" (٢/ المدثر). وقوله تعالى: "فلا تدع مع الله إلهًا آخر فتكون من المعذبين. وأنذر عشيرتك الأقربين" (٢١٣/ ٢١٤ الشعراء). فخرج صلوات الله وسلامه عليه - إلى الصفا ونادى عشائر قريش بطنا بطنا. فلما اجتمعوا بدأهم بالحديث عما يقرون جميعا به، وأنهم يصفونه أمس واليوم بالصادق الأمين. فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم .. ما جربنا عليك كذبا. فقال لهم: إني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم، فرد عليه عمه عبد العزى (أبو لهب): تبا لك ألهذا جمعتنا؟ وانصرفوا عنه. فنزلت في إثر ذلك سورة الفاتحة.

أقول: في هذا البيان الأول برسالة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - نداء لقريش بالإيمان بالله وتوحيده، وبالكفر بآلهتهم من الاصنام والاوثان التي يعبدونها من دون الله، والرجوع إلى الله، والخوف من عذابه الشديد، وكان - صلوات الله وسلامه عليه - حريصًا على إيمان الناس جميعا بالله. وعلى اقرارهم بتوحيده، وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد.

وفى حديثه - صلوات الله وسلامه عليه - مع عمرو بن عنبسة السلمى[٩] ما يكشف لنا عن دعوته ورسالته، وكان عمرو كما يقص علينا صاحب "السيرة الحلبية" قد رغب عن آلهة قومه فى الجاهلية، فلقى رجلا من أهل تيماء من أهل الكتاب، فقال له: إنى امرؤ مكروه ممن يعبدون الحجارة - فقال له: يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين.

يقول السلمى: فلم يكن لى همة منذ قال ذلك إلا مكة آتى فأسأل: هل حدث حدث؟! فيقال لى: لا فأرجع، ثم قدمت مرة فسألت، فقيل لى: حدث، رجل يرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها.

فشددت له راحلتى، ثم قدمت منزله الذى كنت أنزله بمكة، فسألت عنه، فوجدته مستخفيا، ووجدت قريش عليه أشداء، فتلطفت له حتى دخلت عليه، فسألته:

- أى شىء أنت؟

- قال: نبى.

- قلت: من نبأك؟

- قال: الله.

- قلت وبم أرسلك؟

- قال: بعبادة الله وحده لا شريك له - وبكسر الأوثان - وصلة الرحم - وأمان السبيل.

- فقلت: نعم ما أرسلت به، قد آمنت بك وصدقتك، أتأمرنى أن أمكث معك أو أنصرف.

- فقال: ألا ترى كراهة الناس ما جئت به، فلا تستطيع أن تمكث، كن فى أهلك، فإذا سمعت بى قد خرجت مخرجا فاتبعنى.

فكنت فى أهلى حتى خرج رسول الله إلى المدينة فسرت إليه، فقدمت المدينة، فقلت: يا نبى الله: أتعرفنى؟

- قال: نعم .. أنت السلمى الذى أتيتنى بمكة[١٠].

* * *

وجاهد رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – فى مكة ثلاث عشر سنة، ثم فى المدينة عشر سنوات، حتى بلغ دين الله ورسالته إلى الناس كافة، وإلى الامم جميعًا، وبنى دولة الإسلام فى الجزيرة العربية، التى امتدت حتى شملت أرجاء الدنيا بعد وفاة الرسول الأعظم بقليل، وترك رسول الله من ورائه كتاب الله، وسنة رسوله، وفيهما كل قيم الإسلام، وأصول دعوته، وهذه الأصول تتركز فيما يلى:

١ – عبادة الله وحده لا شريك له.

٢ – والإقرار برسالة محمد، وأنها خاتمة الرسالات.

٣ – والإيمان بما شرعه الله – عز وجل – من عبادات وطاعات وفضائل، ومن معاملات وتشريعات للفرد وللأسرة، وللمجتمع والأمة بل والإنسانية كافة.

٤ – وتقرير حقوق الإنسان كاملة.

٥ – تقرير الشورى والعدل والحرية والمساواة لكل بنى البشر.

٦ – تحرير المجتمعات الإنسانية من الخوف والاستعباد والظلم ومن كل ألوان الزيف والضلال.

٧ – إعلان الأخوة التامة بين الناس والشعوب والأمم والأجناس كافة.

٨ – الدعوة إلى العلم والمعرفة وإلى العمل وإلى الخير والبر والإحسان.

٩ – إحلال العقل منزلته الرفيعة كهادٍ للإنسان فى ظلال وحى السماء.

١٠ – كتاب الله هو الدستور الخالد الدائم الصالح لكل زمان ومكان، ولكل الشعوب والمجتمعات.

١١ – تنظيم الأسرة تنظيما كاملا لتكون هى نواة المجتمع الإسلامى الكبير.

١٢ – الإيمان بالغيب، وبالبعث والنشور والحساب والجزاء.

* * *

أيها الراعى الكبير.

راعى الغنم العظيم.

لقد جئت بالرسالة، بالمعجزة، بالخير العميم لكل بنى البشر.

وجئت بالنور والهداية والكرامة والشرف لكل بنى الإنسان.

وجئت بالذكر الحكيم الذى أنزله الله عليك كتابا منزلا يحوى خير الدنيا والآخرة، وبنيت دولة لم تكن تغرب عنها الشمس.

وأقمت أسس حضارة استظل بظلها العالم كافة قرونا وأجيالا.

ونشرت السلام والإخاء فى الأرض كافة.

أيها الرسول الأمين.

يا راعى الغنم العظيم.

سلام عليك. سلام عليك فى الأولين والآخرين. وسلام عليك إلى يوم الدين.

محمد الأمين

عاش محمد فى مكة يرعى الغنم. وقد عصمه الله من كل موبقات الجاهلية. وطهره من أرجاسها، فلم يسجد لصنم، ولم يعبد وثنا، ولا حضر موسم حج. ولا شرب الخمر، ولا أكل مما ذبح على النصب. ولا جلس فى مجالسهم للهو، ولا شارك القوم فيما كانوا يقومون به لهذه الآلهة الكاذبة من تقديم القرابين. وإقامة الصلوات. وإحياء المواسم. ولم ينحرف فى شيء قط مما كانوا ينحرفون فيه عن سنن الحق. وإنما كان الصادق الذى لا يكذب، الوفى الذى لا يغدر، الناصح الذى لا يغش. الأمين الذى لا يخون .. كان طاهر النفس، واسع الحلم، رحيم القلب، جم التواضع والشجاعة والسخاء ..

وقد عرف له أهل مكة هذا السمت الوقور، وهذا الخلق الرضى. فأحبوه وأكرموه، ووصفوه بأحسن ما يمكن أن يوصف به إنسان من صفات الكمال. فلقبوه بالأمين، وأصبح هذا اللقب علما عليه، به ينادى، وبه يذكر ..

تجارته فى مال السيدة خديجة
وزواجه بها

كانت خديجة بنت خويلد مثلا بين نساء مكة فى الجمال والشرف. وطهارة النفس، وكانت كثيرة المال، وافرة الثراء، لها تجارة واسعة ترسلها الى الأسواق مع ما ترسله قريش من قوافلها، وكانت قافلتها أحيانا تعدل قوافل قريش كلها. وكانت تستاجر الرجال من أهل مكة ليتجروا لها، وكانت تعرف محمدا وتلاحظه منذ نشاته. لانه من بنى عمومتها، يلتقى بنسبها فى قصى بن كلاب.

فلما اكتمل شباب محمد، واستوى عوده، رغبت اليه خديجة فى ان يخرج فى مالها تاجرا، وقبل، فكانت تبيع ما يجئ به، وتربح فيه ضعف ما كانت تربح من قبل. فارتاحت اليه، ولمست فيه ما كان يبلغها عنه من صدق الحديث، وعظم الامانة. وكرم الأخلاق. فأرسلت اليه تخطبه لنفسها.

وتزوج محمد خديجة، وكانت فى الأربعين. وكان هو فى الخامسة والعشرين. وهى أم أولاده جميعا، عدا إبراهيم فهو من مارية القبطية ..

التعبد فى حراء ونزول الرسالة

كان رسول الله (ص) يتعبد فى حراء شهرا من كل سنة، فإذا انصرف كان أول ما يبدأ به الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا.

حتى إذا كان شهر رمضان الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التى بعث الله تعالى فيها، خرج رسول الله إلى حراء، ومعه اهله. حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ..

قال رسول الله: جاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج، فيه كتاب فقال:

- اقرأ

قلت: ما أنا بقارئ

فضمنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال:

- اقرأ

قلت: ما أنا بقارىء

فضمنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال:

- اقرأ

قلت: ماذا أقرأ؟

فضمنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال:

- اقرأ، باسم ربك الذى خلق - علم الإنسان ما لم يعلم فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عنى .. فخرجت، حتى إذا كنت فى وسط الجبل، سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .. فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم ولا أتأخر، فلا أنظر فى ناحية من السماء إلا رأيته كذلك ..

وبعثت خديجة رسلها فى طلبى "فبلغوا أعلى مكة، ثم رجعوا وأنا واقف فى مكانى كذلك .. ثم انصرف عنى، وانصرفت راجعا إلى أهلى، حتى أتيت خديجة.

فقالت: يا أبا القاسم أين كنت، فوالله لقد بعثت فى طلبك حتى بلغوا مكة ثم رجعوا، فحدثتها بالذى رأيت، فقالت: أبشر يا بن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ثم قامت وانطلقت إلى ورقة ابن عمها، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله أنه رأى وسمع فقال ورقة: قدوس قدوس، والذى نفسى بيده، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة - فرجعت خديجة إلى رسول الله فأخبرته بقول ورقة فلما قضى رسول الله جواره فى حراء وانصرف إلى مكة لقيه ورقة فى الطواف، فقال: يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله فقال له ورقة:

والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ثم انصرف رسول الله إلى منزله وبدأ نزول القرآن فى رمضان.

كان في العرب قبل البعثة المحمدية من يعبد الأوثان والأصنام. وكان منهم من يعبد الكواكب والنجوم، ومن يعبد الملائكة، منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الله على دين الحنفية، دين إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام. وهم الحنفاء.

دخل يزيد بن عمرو بن نفيل إلى الكعبة وهو على بعيره، ونظر الى الأصنام حولها، ونظر إلى ما حول الكعبة، فرأى عبد الله بن جحش ابن اميمة بنت عبد المطلب، وعثمان بن الحويرث، وورقة ابن نوفل. فذهب نحوهم فسمعهم يتهامسون، يقول واحد منهم: تعلمون والله ما وقوفكم على شيء، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه، وثن لا يضر ولا ينفع يعبدونه من دون الله، فابتغوا لأنفسكم ..

ويعزم زيد بن عمرو بن نفيل على الخروج إلى الشام، ليلقى القسس والرهبان هناك، وليتحدث إليهم، ويحدثوه عن دين الله وعن شريعة السماء، طلبا للدين الخالص، وعرفت زوجه صفية بنت الحضرمي بما عزم عليه زيد، فذهبت إلى أخيه الخطاب بن نفيل لعله يحول بينه وبين ما عزم عليه من الخروج إلى الشام، ولكن زيدا يغافلها ويمضي في طريقه إلى الشام، ثم الموصل، طلبا لدين الله، دين الحنيفية البيضاء ثم عاد إلى الشام فلقي راهبا، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال له الراهب: إنك لتسأل عن دين، ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد ذهب ما كان يعرفه، ودرس من علمه: فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين ابراهيم الحنيفية ..

وأخذ زيد يصلي لله ويسجد له، ويدعو قومه إلى دين أبيهم ابراهيم عليه السلام ..

وذهب ورقة إلى كنائس الشام يسأل الرهبان، فأرشدوه إلى المسيحية فاعتنقها.

ووقف عثمان بن الحويرث حائرا بين المسيحية واليهودية، وآثر أن يعبد الله على ملة إبراهيم خليل الله ..

وكان زيد بن عمرو بن نفيل يلقى من أخيه الخطاب عنتا وإرهاقا وأذى كبيرا، فلا يبالي بذلك كله، ويقول لقومه:

اللهم أني أشهدك إني على دين إبراهيم، اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك ولكني لا أعلم.

ويقول للناس وهم يذبحون ذبائحهم على اسم هبل واللات والعزى:

الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الارض، فلم تذبحونها على غير اسم الله ..

ويدخل الكعبة، ويقول أمام الناس من الطائفين بها:

لبيك حقا، حقا

تعبدا ورقا

عذت بما عاذ به إبراهيم

ويلتفت إلى الكعبة ويقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجرا، ولا أصلي له، ولا آكل ما ذبح له، ولا استقم الأزلام، وإنما أصلي لهذا البيت، حتى الموت.

ويردد زيد: لبيك لا شريك لك، ولا ند لك ..

هؤلاء الحنفاء لم يصمد منهم إلا زيد، لقد سار على الحنيفية البيضاء وغيره دخل في المسيحية لأنها ديانة القيصر في مملكته.

وولد رسول الله، وشب، وعاش زاهدا عابدا لله على الحنيفية البيضاء محجة إبراهيم وإسماعيل .. حتى جاءته الرسالة، وبشر بالإسلام، ودعا الناس اليه، فكان الإسلام دينه، والقرآن شريعته، والكعبة قبلته، وهداية الناس إلى دين الله ورسالته غايته وأمله وسعيه طول حياته، صلى الله عليه وسلم في الأولين وصلى الله وسلم عليه في الآخرين.

الرسالة الخالدة

رسالة من السماء إلى الأرض حملها الروح الأمين جبريل عليه السلام وأدها للرسول العربى العظيم، محمد بن عبد الله، رسالة هزت الدنيا، وأضاءت الكون، وجددت الحياة، أعزت الإنسان، وكرمت العقل وقدرت العلم والمعرفة، وأحاطت الإنسان هذا المخلوق العجيب بهالة من الألَقِ والنور والضياء.

رسالة من الله العزيز القوى إلى البشر أجمعين، وإلى كل ذى عقل وفكر سليم .. وإلى الصفوة المختارة من خلفه تعالى.

رسالة إلى محمد بن عبد الله تدعوه إلى دعوة الناس كافة إلى دين الله، وإلى توحيد الله، وإلى طاعة الله، والامتثال لأوامره "تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" (١ من سورة الفرقان).

"قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا"

رسالة تدعو إلى الإيمان المطلق، وإلى التوحيد التام، وإلى فضائل الحياة والإنسان.

وتدعو إلى مكارم الأخلاق والآداب، وإلى كل فضائل النفس، وإلى الحق والعدل والإحسان وإلى الصدق والأمانة وتحمل المسئولية، والالتزام بحدود ما أنزل الله.

رسالة أعزت الحرية، وكرمت الإنسان ورفعت من شأن العقل والمعرفة، ودعت إلى التأمل فى الكون الكبير، وإلى ميثاق للشرف والصدق والأمانة والوفاء بالوعد وبالعهد، وأحاطت الإنسان بسياج من الطهارة، طهارة النفس والمال والعرض والثوب، طهارة الأحساب والأنساب وطهارة الكلمة وصدقها والتزامها للحق الصرف لا تعدل عنه قيد أنملة.

رسالة تجتبيك في الإيثار لا الاثرة، وفي الفضيلة لا الرذيلة. وتضع بين يديك تشريعات كاملة للفرد والأسرة والمجتمع والأمة وتتمشى من الفطرة الإنسانية. وتدافع عن حقوق الإنسان وكرامته وشرفه وعرضه..

رسالة تدعوك إلى أن ترفع رأسك لا تخفضها أبدا. وتدعوك إلى التعادل بين المادة والروح فتبين العقل والقلب وبين الدنيا والآخرة وبين صوت الضمير وصوت الدين.

رسالة واضحة قيمة، تدعوك إلى شريعة الله وإلى دين القيمة، وتأمرك ان تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، وأن تزرع الخير والرحمة في نفسك وان تحرص على الفضيلة وتؤمن بها وتدنو اليها.

رسالة احتواها الكون بين جوانحه وسرى بها الملك الأمين ليوديها إلى رسول الله ورسول الله يؤديها إلى الناس والملوك وبين حدودها لهم كافة.

رسالة الخير والحق.

رسالة الرحمة والعدل.

رسالة النور والعلم.

إنها رسالة التوحيد والسماء.

بعيدا عن هداية السماء، ووحى الله، وشريعته السماوية المنزلة .: لن يستطيع الإنسان الفوز في سباق الحياة ..

وكلما كان الإنسان قريبا من الله، كان الله قريبا منه كلما استضاء بنور الوحى، وشعاع الإيمان، وضوء الشريعة، وعمل بما أمر الله كان معه فى كل وقت، وكان الله قريبا منه في كل عمل.

والعقل الإنسانى الذى خلقه الله مرشدا للإنسان لا يستطيع مهما علت ألمعيته أن يعرف مناهج الرشاد ووسائل الخير وأسباب النجاح فى الحياة ففى الاقتصاد مثلا مذاهب متعارضة متباينة أشد التباين .. وفى التربية كذلك مذاهب متناقضة .. وفى الثقافة مذاهب يناقض بعضها بعضا أشد حدود التناقض .. وفى الفلسفة، والأخلاق والتشريع كثيرا ما يحدث الاضطراب والتناقض والاختلاف.

من أجل ذلك كان الدين يجمع الناس على طريق واحدة، طريق الخير والحق والعدل والإيمان.

وكما يحدث عندما ينشأ مذهب أو فلسفة أو مدرسة أن يصدر بيان يوضح حدود ذلك والغاية من وراء ذلك .. كذلك عندما ينزل الله شريعة على الرسول من رسله الكرام، ينزل عليه كتابا يتضمن معالم هذه الشريعة وحدودها والغاية منها.

وكما أوحى الله عز وجل إلى موسى وعيسى، أوحى إلى محمد عليه السلام.

وكما أنزل على الأنبياء والرسل كتابا من السماء كذلك أنزل على عبده، محمد عليه السلام كتابا يوضح لهم الطريق ويبين لهم الهدى والرشاد، ويدعوهم إلى الفضائل، ويرشدهم إلى التوحيد.

رسول من الله

قال الله تعالى: "محمد رسول الله"

"يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا" (٤٥ - ٤٧ الأحزاب)

آيات ثلاث كريمات من سورة الأحزاب، هذه السورة المدنية التى احتوت على خطاب الله عز وجل لنبيه الكريم أربع مرات على سبيل التنويه والتكريم، كما تحدثت عن نصر الله لعباده المؤمنين ولنبيه الأمين فى غزوة الأحزاب، ودعا الله عز وجل المؤمنين إلى اتخاذ الرسول الأعظم قدوة كريمة لهم، ومثلا أعلى يحتذون حذوه، وقصة زواج الرسول بزينب بنت عمته وطلاقها من زيد بن حارثة، فعن عائشة: كانت زينب تسبقنى فى المنزلة عند رسول الله، وعن عائشة: يرحم الله زينب لقد نالت فى الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف، أن الله زوجها، ونطق به القرآن.

وما أعظم تشريف الله عز وجل لنبيه الكريم فى هذه السورة قوله تعالى:

"ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شىء عليما".

وقوله عز وجل:

"إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما".

وقوله عز وجل:

"يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا"

والمعنى: أن الله عز وجل أرسل محمدا صلوات الله عليه رسولا إلى الدنيا جميعا، بعد عيسى عليه السلام، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ختمت الرسالات والنبوات، فهو خاتم المرسلين، وآخر النبيين، لا نبى بعده إلى يوم الدين - يقول الله عز وجل:

"قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا"

أرسله الله عز وجل شاهدا على أمته بانه بلغهم الرسالة. وادى اليهم شريعة الله، شريعة الإسلام كاملة غير منقوصة، وبلغ لهم كتاب الله عز وجل كما أوحى الله جل جلاله به إليه ..

وأرسله مبشرا للمؤمنين من أهل طاعته. ونذيرا للكافرين وأهل معصيته. وداعيا إلى الله أى إلى توحيده وعبادته وطاعته وحده لا شريك له. وسراجا منيرا يهتدى به للحق ويستضاء بهديه في كل شئون الحياة.

ويأمر الله عز وجل بان يبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا.

والبشارة الأولى هى بشارة بالنعيم المقيم فى الآخرة والبشارة الثانية هى بشارة بالنصر والغلبة وانتشار الدين فى الدنيا، بشارة بالعزة والسيادة وبالنصر لدين الله ولمن آمن به.

وهذه الآيات فى عمومها ترفع من منزلة نبينا صلوات الله عليه. وتوضح من أمره ما ليس يخفى على عاقل.

أنه رسول الله إلى الإنسانية جمعاء ..

أنه خاتم النبيين والمبعوثين برسالات السماء ..

أنه الذى اصطفاه الله بوحيه وبرسالته وينزل القرآن عليه من بين خلقه أجمعين ..

ولقد نزل الوحى على رسول الله وهو يتعبد فى غار حراء خارج مكة حيث أكرمه الله فى ليلة من ليالى رمضان المبارك برسالته، وبنزول القرآن عليه .. وهو شرف لا يصل إليه شرف، وهو اصطفاء من الله عز وجل لخير عباده المتقين.

وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يختار من عباده من يشاء، رسلا مكرمين يوحى إليهم برسالته ليبلغوها للناس، ليخرجوا بها من الظلمات الى النور ومن الضلال إلى الهدى، ومن الحيرة والشك إلى الإيمان واليقين.

ومحمد صلوات الله عليه رسول أوحى إليه برسالة السماء. كما أوحى إلى النبيين من قبله، يقول الله عز وجل:

"انا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهود وسليمان وآتينا داود زبورا، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليما، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيما"

والتكليف الإلهي لرسل الله، ولمحمد صلوات الله عليه من بينهم هو ان يبشروا وينذروا، ليسلك الناس طريق الهدى والرشاد والصواب، وليؤمنوا بالله وشرائعه المنزلة، وليحيدوا عن طريق الغواية والضلال، وما أشرفها غاية، وأكرمها رسالة، وأجملها مهمة.

وقد كلف الله نبينا الكريم بالرسالة الإلهية، فبلغها الناس، وأداها للعالمين كافة، ولقى فى سبيل إبلاغها ما لقى من اضطهاد وتعذيب ومقاومة.

ويوم أن رأى أبو طالب عم رسول الله ابن أخيه محمدا، وابنه على بن أبى طالب يصليان، ويدعوان بما لم يكن يألفه قال لرسول الله (ص): أى ابن أخى، ما هذا الدين الذى أراك تدين به؟ قال: أى عم هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به رسولا إلى العباد..

وقال لابنه على: أى بنى، ما هذا الدين الذى أنت عليه؟ قال: يا أبت، إنى آمنت بالله وبرسول الله وصدقت بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته ..

الرسالة وما أعظمها.

والوحى وما أكرمه.

والقرآن الكريم وما أجله.

والدين المنزل، الإسلام، وما أشرفه ..

إنه رسالة الله إلى الناس كافة .. وإلى الدنيا جميعا، وإلى كل العصور والأجيال ..

والرسالة نهاية المطاف فى حياة الإنسانية عندما تنحرف عن جادة السبيل، وتهوى فى مهاوى الضلال والإثم والفساد والشرك .. فهى النور الذى يضىء الطريق.

وهى الأمل الذى يرفع بالناس الى حياة الطموح والعمل. وهى العزة والشرف والفوز لمواكب المحرومين والمظلومين والحائرين.

وكان فى الجاهلية من يطمح فى أن يكون رسولا من الله كأمية بن أبى الصلت، ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته. وكفر أميه، وكان من الهالكين.

وكان من العرب واليهود من يطمح فى أن يكون لهم الرياسة على الناس. وكانوا يظنون الرسالة سيادة وملكا وجاها ونفوذا. كان الوليد بن المغيرة فى مكة قد عملت له قريش تاجا ليتوجوه به وكانوا يسمونه "ريحانة قريش". فلما اصطفى الله محمدا برسالته، حسده ونقم عليه، واشتد فى مقاومته للدعوة والرسالة. وهو والد خالد بن الوليد، وكان يقول: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها. ويترك ابن مسعود الثقفى سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين، أى مكة والطائف. فنزل قوله "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات".

ولم قدم رسول الله (ص) المدينة كان سيد أهلها هو عبد الله بن أبى ابن سلول، لا يختلف فى شرفه اثنان. لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه شريف مطاع وهو أبو عامر بن صيفى، وكان قد ترهب فى الجاهلية، ولبس المسوح فكان يقال له الراهب، وكان يبشر برسول يبعث إلى الناس، ويطمح أن يكون هوذياك الرسول. فلما بعث رسول الله، هاجر إلى المدينة، وصار للإسلام فيها السيادة، انتكس ابن أبى وأبو عامر هذا وانسلخا من آيات الله، والتهم الحقد قلبهما على رسول الله فتآمرا عليه بالعداوة والبغضاء والحرب الخفية والمعلنة، ولكنهما باءا بغضب الله وعذابه .. وقال سعد ابن عبادة لرسول الله: يا رسول الله اترك ابن أبى لغضب الله فوالله لقد جاءنا الله بك، وأنه ليرى أن قد سلبته ملكا ..

ومن هذا المنطق رفض رسول الله ﷺ أن يكون ملكا، وابان للناس انه رسول من الله، وكان صلوات الله عليه يقول لهم إنى رسول الله اليكم. يأمركم ان تبعدوا الله، ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا به، وتصدقوا بى.

وكان رسول الله يقول للمشركين من قريش ما جئت بما جئتكم به. أطلب أموالكم كأولاد الشرف فيكم، ولا الملك عليكم إن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

ولكن العرب كانوا يظنون الرسالات ملكا. ومن أجل ذلك رأينا أبا سفيان يقول للعباس بن عبد المطلب فى فتح مكة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما فرد عليه العباس قائلا: يا أبا سفيان أنها النبوة وقال عروة ابن مسعود وقد وجهته قريش إلى الرسول عام الحديبية: يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه. وإنى والله ما رأيت ملكا قط فى قومه مثل محمد فى أصحابه ..

نعم النبوة والرسالة لا الملك والسلطان ..

ووظيفة الرسول كما وضحها الله عز وجل فى كتابه الحكيم لنبيه الكريم هى:

أولا- أن يكون شاهدا على أمته يوم القيامة بأنه بلغهم الرسالة (رسالة الله) وأمرهم باتباع شريعته.

ثانيا- أن يكون مبشرا للمؤمنين برسالة الله بالفوز فى الآخرة والنجاة يوم الحساب.

ثالثا- أن يكون نذيرا للكافرين بعذاب شديد من الله يوم القيامة.

رابعا- أن يكون داعيا إلى الله وإلى عبادته وطاعته وتوحيده وإلى الإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر. ووظيفة الداعية إلى الله هى وظيفة الرسل الكرام، صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى نبينا خاتم المرسلين ..

وبعد أن أوضح الله عز وجل المهمة التى كلف بها رسولنا الأمين، "محمد" صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .. أمره بأن يبشر صحابته من المؤمنين برسالته، والمجاهدين فى سبيله بأن لهم من الله فى الدنيا الفضل الكبير، والفوز العظيم، بالنصر والمنعة والسيادة والعزة وانتشار كلمة الله فى الآفاق، وعموما الدعوة إلى كل مكان .. وبلوغ الرسالة إلى كل أفق، هذه الرسالة السماوية الإلهية الجليلة.

رسالة العدل والإحسان والمساواة والإخاء، رسالة الحرية والمدنية والتقدم، رسالة الحضارة والإنسانية والمثل الرفيعة ..

رسالة الفطرة السليمة، والنظام الأمثل، رسالة الدين والدنيا، والروح والمادة، والعمل والبناء والتقدم ..

هذه الرسالة التى شهد لها كل المفكرين فى جميع العصور فى الشرق والغرب، والذين كان من آخرهم مؤلف كتاب "الخالدين مائة" الذين صدر بهم رسولنا محمدا صلوات الله عليه، ثم من أشهرهم روجيه جارودى هذا المفكر الفرنسى الكبير الذى أعلن فى شجاعة فشل المنهاج الغربى الحضارى فى علاج أزمات الإنسان والمجتمعات والشعوب، ونادى فى قوة بأن الاسلام وحده هو القادر على فتح الأمل من جديد لكافة المجتمعات الغربية، ودعا إلى العودة إلى المنهج الحضارى الإسلامى المتقدم الذى يعتنق أنبل القيم من أجل خير الإنسان والبشرية ومن أجل بناء الحضارة وتجددها.

ويذهب جارودى إلى أن الإسلام هو الدين الحق، الذى أنزل للناس كافة، فى كل زمان ومكان، وأن عقيدة التوحيد التى أتى بها الإسلام هى العقيدة المثلى التى لا يصل إليها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأن مستقبل العالم يكمن فى الإسلام، والحلول الإسلامية وحدها هى القادرة على إنقاذ المجتمعات الإنسانية من الأزمات والمحن والمشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وأن المنهج الإسلامى هو المنهج الذى يتحتم على الإنسانية أن تنهجه .. وصدق الله العظيم "سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد". (٥٣ فصلت)

ويأمر الله عز وجل رسوله عز وجل بأن يقول:

"وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون" (٩٣ سورة النمل).

أول المؤمنين

كان أول من آمن بنبوته - ﷺ - زوجه خديجة، وابن عمه على بن أبى طالب، وقد كان فى كفالة النبى، لأن أبا طالب كان كثير العيال. قليل المال. فكفل العباس (عم النبى) جعفر بن أبى طالب، وكفل النبى عليا.

ثم أسلم زيد بن حارثة الكلبى - مولى خديجة - الذى وهبته للرسول. فاعتقه وتبناه، فكان يقال له زيد بن محمد. الى أن نزل قوله تعالى:

"ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا اباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم"

فدعوه زيد بن حارثة ..

وقيل إن أول من أسلم من الموالى: بلال الحبشى، وأم أيمن (بركة الحبشية)، حاضنة الرسول بعد وفاة أمه آمنة ..

وتلا هؤلاء الثلاثة رجال من زعماء قريش كأبى عبيد. والأرقم بن أبى الأرقم صاحب الدار التى بدأت فيها الدعوة سرا .. وهؤلاء هم: السابقون الأولون.

السابقون المقربون

لم يقتصر الإيمان بنبوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - على أقاربه ومواليه بل تعداهم إلى بعض رجالات قريش مثل أبى بكر الصديق الذى اتصف بصفات طيبة قل أن اجتمعت فى رجل.

وكان لإسلام أبى بكر أثر عظيم. فقد اسلم على يديه رجال عظماء. منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وطلحة بن عبيد الله . . .

وتلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش. كأبى عبيدة بن الجراح، والارقم ابن أبى الأرقم، الذى اتخذت داره مركزا لبث الدعوى سرا، ولا تزال هذه الدار بمكة إلى اليوم.

وهؤلاء هم:

(السابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم*)

الرسول وتبليغ الرسالة

مضى الرسول ﷺ فى طريقه، من تبليغ رسالة الله والدعوة إلى الدين.

ثم إنه اجتمع بعد غروب الشمس، عند ظهر الكعبة، عتبة بن ربيعة، وشيبه ابن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث وأبو البحترى ابن هاشم، والأسود ابن المطلب. وزمعة بن الأسود. والوليد ابن المغيرة. وابو جهل بن هشام، وعبد الله ابن أبى أمية. والعاص بن وائل. ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. وامية بن خلف. فقال بعضهم لبعض: ابعثوا الى محمد. فكلموه وخاصموه. حتى تعذروا فيه. فعثوا اليه: ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليكلموك. فاتهم. فجاءهم رسول الله. وهو يظن ان قد بدا لهم فى الدين رأى جديد، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم. وبعز عليه عنتهم. وجلس إليهم. فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا اليك لنكلمك. وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك..

لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام. وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ..

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك:

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بى ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به اطلب أموالكم. ولا الشرف فيكم. ولا الملك عليكم. ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل علىَ كتابا، وأمرنى أن اكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم. فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة. وإن تردوه علىَ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم، قالوا: يا محمد .. فإن كنت غير قابل منا شيئا

مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد اضيق بلدا، ولا اقل ماء، ولا أشد عيشا، منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول: فقال لهم صلوات الله عليه: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما ارسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك: سل ربك ان يبعث معك ملكا يصدقك بما تقوله، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولا، كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا: وما بعثت بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا .. فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وأن تردوه على، اصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فاسقط علينا كسفا كما زعمت إن ربك لو شاء فعل، فانا لا نؤمن لك الا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله لكم فعل، قالوا: يا محمد .. أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك، فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا اذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا انك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له "الرحمن" وإنا - والله - لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه، عبد الله بن أبى أميه المخزومى، وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد .. عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا، ليعرفوا بها منزلتك من الله، كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك إلى الله، فلم تفعل: ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبدا، حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك، حتى تأتيها، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله أن لو فعلت ذلك، ما ظننت أنى أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله.

وانصرف رسول الله إلى أهله حزينا آسفا مما فاته، مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه ولما قال عنهم رسول الله، صلوات الله عليه قال أبو جهل: يا معشر قريش: إن محمدا قد أبى إلا ما ترون، من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته، فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بعد ذلك بنوعبد مناف ما بدا لهم .. قالوا:

والله ما نسلمك لشىء أبدا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرا، كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا رسول الله كما كان يغدو، وكان رسول الله بمكة، وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام فقام رسول الله يصلى، وقد غدت قريش، فجلسوا فى أنديتهم، ينتظرون، ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله، احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما، منتقعا لونه، مرعوبا، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر الذى معه من يده، وقامت إليه رجال قريش، يقولون: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه، لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بى أن يأكلنى.

وروى أن رسول الله قال: ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه. فلما قال لهم ذلك أبو جهل، قام النضر بن الحارث، فقال: يا معشر قريش، أنه - والله - قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة - حتى إذا رأيتهم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: كاهن: لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة، وسمعنا سجعهم وقلتم: شاعر: لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها. هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بوسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش فانظروا في شانكم فوالله لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكان النضر من شياطين قريش، كان يؤذي رسول الله، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا، فذكر فيه بالله، وأنذر قومه ما أصاب من قبلهم، من نقمة الله، قام من مجلسه وقال: أنا والله - يا معشر قريش - أحسن حديثا منه، هلموا إليَ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني؟

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه، وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة، وقالوا إليهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، واخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا، حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: أنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح، ما هي، فان أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم..

فاقبل النضر وعقبة، حتى قدما مكة على قريش. فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار اليهود ان نساله عن اشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي. وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، واخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله، ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غدا، ولم يقل إن شاء الله .. فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله، ﷺ خمس عشرة ليلة. لا يحدث الله اليه في ذلك وحيا. ولا ياتيه جبريل. حتى ارجف أهل مكة. وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة. قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله مكث الوحي عنه. وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته اياه على حزنه عليهم. وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوال، وروى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبريل، حتى سؤت ظنا، فقال له جبريل: وما تتنزل إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا وما خلفنا، وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا.

وفي سورة الكهف: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا؟ إذ آوى الفتية إلى الكهف، وفي السورة: ويسألونك عن ذي القرنين قل: سأتلو عليكم منه ذكرا، وقال تعالى في سورة الإسراء، ويسألونك عن الروح، قل: الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا، ونزل عليه من سورتي الإسراء والفرقان ما نزل، ونزل في النضر بن الحارث: إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين.

فلما جاءهم رسول الله بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث وموقع نبوته فيما جاءهم من علم الغيب، حين سألوه عما سألوا عنه .. حال الحسد منهم له بينهم وبين الايمان برسالته وتصديقه ولجوا فيما هم عليه من الكفر. وقال قائل منهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، والغوا فيه، لعلكم تغلبون، وإنكم إن ناظرتموه يوما

غلبكم وجعلوا إذا جهر رسول الله بـالقرآن وهـو يصلـي يتفرقـون عنـه، ويـابون ان يستمعوا له خوفا وفرقا.

روى أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريف الزهرى، خرجـوا ليلـة ليستمعوا من رسول الله، وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كـل رجـل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل واحد منهم لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلـو رآكـم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا، ثم انصرفوا ..

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتـى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتـى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال له: اخبرنى عن رأيك فيما سمعت من محمد، قال له أبـو سفيان: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا، والذى حلفت به كذلك ثم خرج من عنده حتى أتى أبـا جهل، فقال له:ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا، واعطوا فأعطينا، حتـى إذا كنـا كفرسـى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذا؟ فوالله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه.

الجهر بالدعوة

ظل الرسول ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سرا من يثق فيه، ويطمئن إلى استعداده النفسي لقبول مبادئه. وكان هو وصحابته في تلك الفترة يستخفون من قريش في صلاتهم، وفي الدعوة إلى دينهم، حتى إذا كثر المسلمون، وخافت قريش تزايدهم، قعدت لهم بكل طريق، تحقر من شأنهم، وتستهزئ بهم. وتصد الناس عنهم، لكن الرسول - ﷺ - أمر على رأس ثلاث سنوات بالجهر بالدعوة، وعدم المبالاة بما نصب له المعارضون المستهزئون، فنزل قوله تعالى:

"فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين"

وقوله تعالى:

"وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون*"

يوم من أيام التاريخ

يوم الجهر بالدعوة

- ١ -

ونزلت الرسالة المحمدية ومحمد الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الأربعين من عمره. ونزول الروح الأمين على محمد ﷺ بآيات الذكر الحكيم. معلنة بدء الشريعة، وبدء الدعوة إلى الله، وبدء نزول الرسالة الخاتمة، رسالة الإسلام، إلى الناس كافة، وإلى العالمين جميعا في الشرق والغرب.

وأخذ الرسول الأكرم يدعو الناس سرا إلى الإسلام، أسلمت خديجة، واسلم علي، وأسلم أبو بكر وعثمان والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. وأبو سلمه المخزومي، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وخالد بن سعيد بن العاص. الذي كان والده سعيد يحارب الدعوة حين علم بها، ويشتط في محاربتها، وسعيد ابن زيد صهر عمر بن الخطاب وكان قد تزوج فاطمة أم جميل أخت عمر، كما أسلم بلال وصهيب وعمار وأبوه ياسر وأمه سميه وبلغ عدد من دخل في دين الله بضعا وثلاثين كانوا يجتمعون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم ابن أسد وكان قد دخل في الإسلام فجعل داره مركزا للدعوة، ولاجتماع المسلمين برسول الله، ﷺ، يقيمون فيها الصلاة ويتلون القرآن، ومنها ظهر الإسلام.

وبقي حمزه بن عبد المطلب عم الرسول الأكرم على شركة، وكان حمزة بطل قريش وفارسها والمكرم فيها، وفي ذات يوم كان رسول الله (ص) جالسا عند الصفا فمر به أبو جهل فأخذ يشتم الرسول ويؤذيه ويعيب دينه. ورسول الله صامت لا يرد عليه، وفي منزل مطل على الصفا وقفت جاريه لعبد الله بن جدعان تنصت لسباب أبي جهل: ولما انصرف عدو الله أبو جهل ذهب الى الكعبه وجلس في مجلس قريش عندها، يحدثهم بما صنعه مع محمد، بينما ذهب رسول الله الى بيته.

وجاء حمزه بن عبد المطلب عم الرسول من ضواحي مكة وهو راجع من صيده، ومتوشح قوسه، فاستوقفته الجاريه، وقصت عليه قصة أبي جهل مع رسول الله فاستشاط غضبا، وذهب إلى الكعبه، وشاهد أبا جهل جالسا في مجلس قريش، فوقف عليه، وحمل عليه بالقوس وضربه بها فشج رأسه شجة منكرة، وقال له: أتشتم محمدا وأنا على دينه، أقول ما يقول. فاردد ذلك على أن استطعت، وأني لأشهد أن لا الله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله، وتدخل بعض من حضر يفكون الاشتباك بين حمزه وأبي جهل، وأبو جهل يقول: دعوا أبا عمارة (حمزه) فإني سببت ابن أخيه سبا قبيحا.

وهكذا أسلم حمزه وكان إسلامه نصرا مبينا للإسلام وبعد ثلاثة أيام من إسلامه أسلم عمر بن الخطاب، وكان أشد الناس عداوة لرسول الله ودينه ولمن دخل في الإسلام وكان إسلامه كذلك معجزه من معجزات الإسلام، وفي سبب إسلامه روايات كثيرة، يروى أن أخته أم جميل بنت الخطاب دخلت في الإسلام هي وزوجها سعيد بن زيد، ويقول عمر: بينما أنا في يوم حار شديد الحرارة وقت الظهيره أسير في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من قريش، فقال لي: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ إنك تزعم أنك الرجل الصلب القوي في دينك، وها هي ذي أختك أم جميل وزوجها قد دخلا في دين محمد، إن والله لقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، قال عمر لمحدثه: وماذا؟ قال: لقد دخل أهل بيتك في دين محمد، يقول عمر: فرجعت مغضبا، فجئت إلى بيت صهري سعيد، فقرعت الباب قرعا شديدا، فقيل: من بالباب؟ فقلت: ابن الخطاب، وكانت أخته وزوجها جلوسا يقرأون صحيفة معهم، وكان معهم خباب يقرئهم القرآن، فلما سمعوا صوتي، اختفوا في البيت، واختبأ خباب كذلك، وتركوا الصحيفة التي كانت في أيديهم، فقامت أم جميل، ففتحت لي فدخلت عليها وقلت لها: يا عدوة نفسها قد بلغني عنك أنك صبأت، وضربها، ووثب عمر على زوجها سعيد، وأخذ بلحيته وضرب به الأرض وجلس على صدره، فجاءت أخته لتدفع عمر عن سعيد فلطمها عمر لطمة شديدة شج بها وجهها فسال الدم، وبكت أم جميل وغضبت وقالت: أتضربني يا عدو الله على أن أوحد الله، لقد أسلمنا

على رغم أنفك، فما كنت فاعلا فافعل، قال عمر فحزنت حين رأيت الدم يسيل من وجه أختي وقمت وجلست على السرير وأنا مُغضب، فنظرت فإذا صحيفة في ناحية البيت، فقلت: ما هذه الصحيفة أعطوني إياها، لأقرأ ما فيها، قالت أخته: لست من أهل هذا، لا يمسه إلا المطهرون، وحاولت أن آخذ الصحيفة فقالت: إنك رجس، قم فاغتسل، فخرج ليغتسل، وكان خباب مختبئا في البيت خوفًا من عمر، فخرج من مخبئه وقال لأم جميل: أتدفعين كتاب الله إلى كافر، قالت: نعم، أني لأرجو أن يهديه الله، وعاد خباب إلى مخبئه، وجاء عمر فناولته الصحيفة، فإذا فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

فذعر عمر ورمى الصحيفة من يده، ثم رجع إلى نفسه وأخذها، فإذا فيها:

سبح لله ما في السموات والأرض

قال عمر فجعلت أقرأ وأفكر، حتى انتهيت من قراءة الصحيفة كلها، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، دلوني على محمد، فخرج زوجها وخباب بن الأرت يتبادرون بالتكبير استبشارا بإسلام عمر، وحمدوا الله، وقالوا: يا ابن الخطاب، أبشر فإن رسول الله (ص) دعا يوم الاثنين فقال: اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بعمرو بن هشام فجئت في دار الأرقم، فقرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت ابن الخطاب، فقال محمد (ص): افتحوا له فإن يرد الله به خيرا يهديه إلى الإسلام، وقال حمزة: افتحوا له فإن يرد الله به خيرا يسلم، ففتحوا له، وإذا حمزة والزبير يأخذان بعضديه حذرا، فقال رسول دعوه، واستقبلني في صحن الدار، وقال له (ص): أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهد قلبه، اللهم أعز الدين به، فنطق عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فكبر الرسول والمسلمين معه .. وصار عدد المسلمين نحو الأربعين أو يزيدون، وفيهم حمزة وعمر وكان ذلك فتحا مبينا.

وبعد قليل جاء عمر لرسول الله، وقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق، قال: بلى، قال عمر: ففيم الاختباء؟.

وجاء أبو بكر إلى رسول الله في دار الأرقم وأشار بالظهور وإعلان الدعوة كذلك.

وجاء حمزة يطلب من رسول الله الجهر بالدعوة وما زالوا يلحون على رسول الله.

وأثناء ذلك ذهب عبد الله بن مسعود يقرأ وكان ابن مسعود من السابقين الأولين إلى الإسلام. وهاجر الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة، ويقول: لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا. واجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط. فمن رجل يسمعهم. قال ابن مسعود: أنا. فقالوا: إنا نخشاهم عليك. أنما نريد رجلا له عشيرة من القوم تدافع عنه إن أرادوه بسوء. فقال: دعوني فإن الله سيمنعني .. وغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتهم حول الكعبة فقام عند المقام فرفع صوته وهو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم - الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. فتأملوا، وجعلوا يقولون: ما هذا. وهم يتعجبون. ثم قال بعضهم لبعض: انه ليتلو ما جاء به محمد. فقاموا فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ من السورة ما شاء الله أن يبلغ، وانصرف إلى أصحابه، وقد أثروا بوجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا منه عليك. فقال ما كان أعداء الله قط أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأستقبلنهم غدا بمثلها، فقالوا: حسبك قد اسمعتهم ما يكرهون، وكان ابن مسعود يقول: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، ولما أسلم عمر قاتل قريش حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه. ولما ذهب ابن مسعود منفردا يسمع قريش كلام الله عز وجل عذبوه وضربوه كما أسلفنا ..

وما زال عمر يراجع الرسول في الجهر بالدعوة والخروج إلى المسجد، ونزل قول الله عز وجل: فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين.. عندئذ أذن لهم رسول الله بالجهر، فخرجوا من دار الأرقم في صفين، على رأس أحدهما عمر وعلى رأس الثاني حمزة، حتى دخلوا المسجد الحرام. وأبصرتهم قريش في كآبة وحزن عميق. وجاء رسول الله (ص) فوقف في نواحي المسجد وقام أبو بكر خطيبا ورسول الله جالس. فكان أبو بكر أول خطيب دعا جهرا عند الكعبة إلى الله وإلى رسوله.

وثار المشركين في المسجد الحرام. وقاموا على أبي بكر وعلى المسلمين يضربونهم في نواحي المسجد ضربا مبرحا. وداسوا أبا بكر وضربوه. وجعل عتبة ابن ربيعة يضربه في وجهه بنعلين له حتى أثر الضرب في وجهه أثرا شديدا، وحتى ما

يعرف وجهه من أنفه، وجاءت قبيلة أبي بكر فحملته في ثوب مغمى عليه حتى أدخلوه بيته ورجعت إلى المسجد وهم يتوعدون عتبة بالقتل إن مات أبو بكر. ثم رجعوا إلى أبي بكر، وأحاطوا به يكلمونه فلا يرد عليهم، ولما جاء آخر النهار أفاق ورد على من يكلمه، وكان أول شيء نطق به أبو بكر: ماذا صنعوا برسول الله. فقالوا له: لا تتكلم خوفا عليه من شدة الألم، ولما أنصرفوا قال لأمه "أم الخير": ماذا صنعوا برسول الله؟ قالت والله ما لي علم بصاحبك، قال فاذهبي إلى أم جميل - أخت عمر بن الخطاب وزوجة سعيد بن زيد - فأسأليها عنه، فخرجت أمه حتى جاءت إلى أم جميل فقالت: أن أبا بكر يسألك عن رسول الله وكانت أم جميل تعلم أن أم أبي بكر لا تزال على شركها. قالت ام جميل: ما أعرف أبا بكر ولا صاحبه وأن تحبي ان أمضي معك إلى أبنك فعلت. قالت: نعم، فمضت أم جميل مع أم الخير لعيادة أبي بكر.

ورأت أم جميل أبا بكر صريعا فأعلنت بالصياح، وقال لها أبو بكر: ماذا فعلوا برسول الله؟، قالت: سالم صالح. قال فأين هو قالت: في دار الارقم. قال فاحملوني إليه، فلما دخل على رسول الله أخذ يقبله وأكب عليه المسلمون. وأسلمت أم الخير على يدى رسول الله.

وأما عمر فوثب عليه كذلك عتبة بن ربيعة، فألقاه عمر على الأرض وبرك عليه وجعل يضربه، وأخذ عتبة يصيح، فأنقذه الناس، وأجار العاصي السهمي عمر، فانصرف الناس عنه، ثم رد عمر إلى العاص جواره، قال عمر: ما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام.

وهكذا انجلت العاصفة عن معذبين في سبيل الله، وعن مشركين يمعنون في تعذيب من دخل دين الله. وكان ذلك أول يوم جهر فيه المسلمون في المسجد الحرام بالدعوة، وتوالت الأيام، والمشركون يزدادون طغيانا وإفكا وجبروتا. والمسلمون صابرون على ما يصيبهم في الله.

حتى جاءهم النصر من عند الله

وتبارك الله العلي العظيم، الذى جعل لكل شيء قدرا.

فلما جهر رسول الله - ﷺ - بالقرآن، كان أول من جهر به بعد رسول الله بمكة: عبد الله بن مسعود اجتمع يومًا أصحاب رسول الله، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فهل من رجل يسمعهم؟ فقال ابن مسعود. أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك. إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوا به سوءا. قال: دعوني فإن الله سيمنعني فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها[1]. حتى قام عند المقام، ثم قرأ. سورة الرحمن: واستقبلها يقرؤها[2].

وتأملوه فجعلوا يقولون. ماذا قال ابن أم عبد، ثم قالوا: أنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ، حتى بلغ منها[3] ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن. ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

٢- ثم أنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله - ﷺ - من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم. ويفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن لشدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من آمن بعصمة الله منهم.

كان بلال مولى لأبي بكر، أسلم وكان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف الجمحي يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر الصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له. لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد. وتعبد اللات والعزى. فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. فمر به أبو بكر يوما وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية بن خلف. ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ فرد عليه أمية قائلا: أنت الذي أفسدته، فانقذه مما ترى. فقال أبو بكر افعل. عندي غلام أسود أجلد منه. وأقوى على دينك. أعطيكه به، قال قد

قبلت. قال: هو لك، فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، وأخذ بلالا فأعتقه وأعتق معه على الإسلام قبل الهجرة ست رقاب:

١- عامر بن فهيرة شهد بدرًا وأحدا وقيل شهد يوم بئر معونة.

٢، ٣ - أم عبيس، وزنيرة.

٤، ٥- النهدية وبنتها.

٦- جارية بني مؤمل، كانت مسلمة وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ على الشرك فاشتراها أبو بكر منه فأعتقها.

٣- وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر[١٤] وأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام. إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله، فيقول: "صبرا آل ياسر موعدكم الجنة". فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام.

٤- وكان أبو جهل يغري بضعفاء المسلمين ومعه في ذلك رجال من قريش. كان إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أتيه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك. لنسفهن حلمك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرا قال له: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، وحتى يقولوا له اللات والعزى إلهك من دون الله. فيقول: نعم[١٥].

مع المعجزة الخالدة

الإسراء والمعراج!

نحن مع هذه الذكرى الخالدة، ذكرى الإسراء والمعراج، ذكرى معجزة كبيرة من المعجزات التى أرادها الله عز وجل تأييدا لرسوله، وتكريما له، وتثبيتا لقلبه.

مع ذكرى لا تزال تشهد عليها محاريب المسجد الأقصى وقبابه ومآذنه، ولو شاء لتكلمت ونطقت وحدثت.

هذا المسجد الاقصى ثالث المساجد فى الإسلام والمسجد الحرام، والمسجد النبوى، والمسجد الاقصى، المسجد الذى يريد الصهاينة أن يهدموه ويقيموا مكانه معبدهم المندثر المزعوم، والذين يعملون جاهدين ليل نهار على الوصول إلى حفائر قديمة ترشدهم إلى مكان أطلالهم البائدة ويحفرون السراديب والأنفاق حوله تحت المسجد الأقصى بغية أن ينالوا من هذا المسجد الأشم، ويأبى الله ما يصنعون ويأبى أن تتحقق أحلامهم السوداء البغيضة ويظل وسوف يظل المسجد الأقصى شاهقًا عاليًا مرتفع القباب، شاهدًا على ضلال الصهيونية ودعاتها وعلى إفكهم العظيم.

إنقاذ الأقصى أقدس واجباتنا

وإذا ما استنجد المسجد الأقصى بحماته العرب لينقذوه من جرائم الصهاينة ومكرهم وخبثهم، فإنما يذكر أجيالنا بأقدس واجب عليهم، وأعظم مسئولية فى أعناقهم .. وقد هبّت الأردن، وهبّ معها بعض الدول العربية والإسلامية من أجل إجراء عملية صيانة وترميم وإصلاح لهذا المسجد الأشم الخالد، ليظل قائما، فى بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه، وتقام فيها الصلوات والتحيات لله رب العالمين وحده لا شريك له، رب السماء والأرض، والملائكة والجن والبشر، والخلق أجمعين.

الرحلة من مكة إلى بيت المقدس ليلا ذهابا وإيابا هى الإسراء، من السرى، وهو السير ليلا، فالإسراء هو الرحلة التى حدثت لرسول الله ﷺ بالليل، والتى بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس .. والمعراج. ما أعقب هذه الرحلة المباركة من الارتفاع فى طباق السموات والأرض حتى الوصول إلى مستوى تتقطع عنده علوم الخلائق، ولا يعرف كنهه أحد؛ ثم العودة بعد ذلك إلى المسجد الحرام بمكة زادها الله تشريفًا وتكريما.

ومعجزة الإسراء ثابتة بالقرآن الكريم، وحى الله الصادق، قال عز وجل:

"سبحانك الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصا الذى باركنا حوله لنريه من ءايتنا".

المعـــــراج

والمعراج وهو الرحلة من بيت المقدس إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى من العروج، وهو الصعود إلى أعلى؛ وفى رحلة المعراج يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم المبين: فى سورة "النجم".

"علّمه شديد القوى (٥) ذو مرة فاستوى (٦) وهو بالأفق الأعلى (٧) ثم دنا فتدلى (٨) فكان قاب قوسين أو أدنى (٩) فأوحى إلى عبده ما أوحى (١٠) ما كذب الفؤاد ما رأى (١١) أفتمارونه على ما يرى (١٢) ولقد رءاه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤) عندها جنة المأوى (١٥) إذ يغشى السدرة ما يغشى (١٦) ما زاغ البصر وما طغى (١٧) لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١٨)".

الرحلة كانت بداية

لبشائر قدوم عصر الفضاء

ووردت قصة الإسراء والمعراج فى الحديث النبوى الشريف، وفى كتب الصحاح الموثقة، مما يقطع بحدوثها، وينفى الريب والزيغ فيها.

أعظم الرحلات

إنها رحلة، وأية رحلة هى، وأعظم بهذا المجد التليد، والعظمة المحمدية الشريفة، والجلال النبوى الكبير الخالد.

نعم، أية رحلة هذه الرحلة؟ إنها ليست رحلة إلى مكان فى الارض، وليست رحلة إلى سماء من السماوات، فحسب .. ولكنها رحلة إلى ما وراء الخلود، إلى سدرة المنتهى، إلى حيث الملأ الأعلى، والأفق الأسمى والساحة العظمى، والعرش والكرسى، إلى ساحة ملك الملوك، وإله الأرض والسماء، وخالق الكون العظيم، ومدبر الأمر كله، إلى حيث الذات العلية الأعلى، والنور الأبدى الكبير، والجلال الذى لا تحده حدود، ولا تقف أمامه إرادة من الإرادات.

مهما كتبت الأقلام

أيها القلم قف، أو قل ما شئت فكل كلام دون عظمة هذه المعجزة، وعظمة من كانت له المعجزة، فضلا عن عظمة من قدر الرحلة ودبرها، وهو من اليه القصد وله المنتهى، وإليه يعود الأمر كله، وهو الخالق العظيم، والإله الحكيم.

رحلة رسول الله محمد بن عبد الله، ﷺ، من مكة إلى بيت المقدس ومن بيت المقدس إلى السماوات العلى، ذهابا وإيابا، رحلة ولا كالرحلات وإسراء ومعراج تقصر دونها كل الغايات.

إنها معجزة كبرى، بشرت بأن عصر الفضاء آت ولا ريب، وعلمت المشركين والكافرين والجاحدين أن قدرة الله فوق كل الإمكانات، وأنها لا تفتقر إلى أسباب، وأنها هى النتيجة الفعلية لقوله تعالى "كن فيكون".

تشريف لمحمد وشرف لأمته

وتمت الرحلة فى وقت غير محدود، وفى زمن غير محسوب، كل ثانية فيها هى أحقاب وأعصر ودهور، الشرف الأكبر فيها لمحمد ﷺ، ولأمته، وللمؤمنين به وبرسالته وبكتاب هذه الرسالة، كتاب الله، القرآن الكريم، والذكر الحكيم. يالله، أيحدث ذلك فى عصر الجمل والناقة لا طائرات ولا صواريخ فضاء، ولا مركبات أبوللو؟..

رحلة مطيتها البراق، وقل فى البراق ما شئت .. الصواريخ ليست بجانبه شيئا مذكورا، ومركبات الفضاء لا تصل إلى مداه العظيم، وتباركت قدرة الله وعظمته.

وهل تمشى النحلة بجانب طائرة نفاثة مثلا، وهل للسلحفاة مكان بجوار مركبات الفضاء.

فى عام الحزن

إن تاريخ هذه الرحلة الخالدة فى أصدق الروايات هو العام الخمسون لميلاد رسول الله (ﷺ)، وهو عام الحزن الكبير، العام الذى فقد فيه رسول الله أكبر نصيرين له ولدعوته، وأعز حبيبين عند قلبه، أبو طالب عمه، وخديجة زوجه وأم أبنائه، هما اللذان وقفا بجواره فى الشدة، وأخذا بيده فى الأحداث وبذلا فى سبيله كل نفيس ليصدّا عنه أذى المشركين والسفهاء والحاقدين والضالين والمضللين: لقد فقد الرسول الأعظم بوفاتهما العم والزوج والنصير والظهير، حتى سمى هذا العام عام الحزن.

وتحدث الرحلة بعد أن أغلقت الطائف وأمراؤها وأشرافها قلوبهم وعقولهم وأبصارهم وآذانهم دون الدعوة والرسالة والتوحيد، وصدت رسول الله (ﷺ) صدودا كبيرا، وعفرت وجهه بالتراب، ومن قبل صنع المشركون فى مكة ما صنعوا برسول الله وبالمؤمنين به.

إنه العام العاشر من البعثة النبوية الشريفة.

وفى الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب كانت المعجزة.

بالروح والجسد

هذه الرحلة الحقيقية هى بالروح والجسد معا، ولو كانت بالروح فقط لما كذبه المشركون، من قريش، ولما عجبوا له هذا العجب كله وقوله عز وجل "أسرى بعبده" دلالة قاطعة على أنها كانت بالروح والجسد جميعا.

رفيق الرسول فى الرحلة: هو جبريل عليه السلام، الروح الامين. وحامل رسالات الله عز وجل الى رسله الكرام، فهو الذى حمل رسائل الوحى وصحفه من السماء إلى الارض. الى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ..

آيات فى الطريق

وفى المعراج عرج جبريل بمحمد (ﷺ)، يريه الآيات فى الأرض وفى السماء، وقبل المعراج - أى فى الإسراء - كان يريه الآيات فيما بين السماء والأرض: وفى بيت المقدس صلى رسول الله صلوات الله عليه بالنبيين وبالمرسلين إماما ومن بينهم إبراهيم وموسى وعيسى صلى باخوانه الانبياء ركعتين فى المسجد الأقصى فكانت هذه الإمامة إقرارا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، أخذت تمامها برسالة محمد (ﷺ)؛ وتروى الرواية أن جبريل أتى رسول الله وهو نائم فى الحجر فأيقظه، وسار به إلى باب المسجد الحرام، حيث مضى برسول الله حتى انتهى به إلى بيت المقدس .. وعن هند أم هانىء بنت أبى طالب أخت الإمام على؛ أنها قالت: ما أسرى برسول الله إلا وهو نائم فى بيتى، صلى العشاء الأخيرة. ثم نام، فلما كان قبيل الفجر أيقظنا رسول الله، فلما صلى الصبح وصلينا معه. أخبرنا بالأمر ..

أبواب السماء تستقبل الرسول

فتحت لرسول الله (ﷺ) أبواب السموات العلى بابا بعد باب.

حيث استقبله فى السماء الأولى آدم عليه السلام. وفى الثانية عيسى عليه السلام ويحيى. وفى الثالثة يوسف، وفى الرابعة إدريس. وفى الخامسة، هارون. وفى

السادسة موسى، وفى السابعة إبراهيم عليه السلام، ثم انتهى جبريل برسول الله إلى ربه.

وفى قصة الإسراء والمعراج نلمح أواصر القربى بين أنبياء الله ورسله الكرام كافة، وبين رسالاتهم ورسالة الإسلام، فقد ثبت أنه (ﷺ) كان يحييهم فيقولون له: مرحبا بالأخ الصالح، والنبى الصالح.

المعراج منّة إلهيّة عظمى لرسول الله ﷺ

وقد أمر الإسلام باحترام جميع الأديان السماوية وجميع الرسل والأنبياء وبالإيمان بهم وبرسالاتهم الصحيحة المنزلة من السماء، وقد أعلن الرسول أنه مرسل لتكملة البناء الذى بناه السالفون للتوحيد فى الأرض والإيمان بالله ورسله وباليوم الآخر والبعث. يقول (ﷺ): "مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به يعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين".

إلى الآفاق

وسارت الرحلة إلى منتهاها، وبلغت كل مداها.

لقد استفتح جبريل الأبواب، ففتحت له ولرفيقه رسول الله السموات سماءً سماءً، وفى كل سماءٍ مر بها عرفه جبريل بكل من فيها، وتلقاه مقربوها، وعرفهم واحدًا واحدًا، وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين، وصافحهم ورأى الملائكة صفوفًا صفوفًا، من بين عابد وذاكر وراكع وساجد ومادح يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ ثم جاوزهم إلى الملأ الأعلى، حيث يسمع صرير الأقلام تجرى بما كان وما يكون، إلى يوم الدين. وشاهد الجنة والنار .. وفى سدرة المنتهى ثبته ربه وحياه وتولاه وأولاه وفرض عليه وعلى أمته الصلاة.

عـــودة

ثم عاد جبريل بالرسول الأكرم إلى مكة المكرمة، وإلى المكان الذى أسرى به منه.

وحدث رسول الله قومه بحديث الإسراء. أما حديث المعراج فرآه منة إلهية عظمى له لا يحدّث بها إلا أقرب المقربين إليه ممن آمن بدعوته. ولأن عقول المشركين لم تكن لتفهم أن قدرة الله فوق كل قدرة فى الأرض والسماء، فلم تفهم الإسراء مع قربه من العقل وأنكرته إنكارًا شديدًا؛ أما حديث المعراج فكيف تفهمه وقد أنكرت ما هو دونه.

من قصة الإسراء والمعراج نلمح أواصر القربى بين أنبياء الله ورسله.

تكذيب قريش وتصديق أبو بكر

وبلغ من غرابة الخبر فى أسماعهم ومن عجزهم المطلق عن فهم معجزة الله أن كذبه الكثير منهم، وأن ارتد عن الإسلام بعض من كان آمن به. وقال الكافرون: كيف يقطع محمد هذه الرحلة ذهابا وإيابا فى ليلة واحدة، والإبل تقطعها ذهابا فى شهر وعودة فى شهر وطلبوا من رسول الله أن يصف لهم بيت المقدس ولم يكن رسول الله قد رآه من قبل، فجلاّه الله له ووضع له بيت المقدس أمام عينيه، فأخذ (ﷺ) يصفه لهم وصفًا دقيقًا، بل وصف لهم الطريق من مكة إلى بيت المقدس والقبائل، وقوافل التجارة السائرة فيه فى ذلك الوقت، كما وصف لهم الإبل وما عليها من أمتعة. ومع ذلك لم يصدقوه، إلا أبا بكر الذى آمن وصدّق. فسمى من يومئذ الصديق. صلى الله على محمد الصادق الأمين.

معجزة السماء

معجزة السماء.

معجزة لا كالمعجزات.

قبل عصر الفضاء بألف وأربعمائة عام يصعد بشر من الأرض إلى السماء، مخترقا أجواز الفضاء، دون علم أو تجربة فضائية، ودون محطات فضائية، ودون مراصد وأجهزة وأموال ضخمة مرصودة، وعلماء يخططون وينفذون ويراقبون.

ما شاء الله العلى الأعلى، رحلة من مكة الحرام إلى بيت المقدس فى ثوان، ووقوف فى القدس الشريف، وصلاة بالأنبياء، وإمامه لهم .. ثم رحلة فى الفضاء مداها هذا الكون العرض من الأرض إلى سدرة المنتهى، ويخترق الرسول الأكرم محمد بن عبد الله السموات السبع الطباق، ومعه جبريل روح القدس، سماء بعد سماء حيث يقابل الأنبياء والرسل الكرام: آدم وإدريس وموسى وعيسى ويحيى وهارون وإبراهيم، ويجتاز الرسول الأعظم بعد ذلك السموات، إلى أن يصل إلى سدرة المنتهى، ويخاطبه الله عز وجل، ويناجى محمد ربه قائلا:

– التحيات لله والطيبات.

ويرد عليه المولى الأعظم:

– السلام عليم أيها النبى ورحمة الله وبركاته.

ويجيبه الرسول:

– السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

ويجئ التمجيد بالصلاة والسلام والبركات على محمد وإبراهيم.

أية عظمة هذه العظمة، وأى جلال هذا الجلال، وأى مجد عظيم للإسلام ولنبى الإسلام، ولأمة نبى الإسلام هذا المجد.

الرسول يخترق الكون كله رحلة مدتها ساعة أو ساعات .. بينما العلم الحديث بكل طاقاته وبقدراته لم يستطع النزول إلا فى القمر على مسافة قصيرة مداها ثلث مليون من الأميال.

الكون الكبير الذى يشتمل على مجرات لا حصر لها، وكل مجرة تحتوى على كواكب ونجوم لا حصر لها .. هذا الكون الكبير يخترق الرسول الأكرم كله إلى أن يقف أمام سدرة المنتهى، ويناجى مولاه وتفرض عليه فى هذا المقام الصلوات الخمس عليه وعلى أمته .

وكذبت قريش معجزة الإسراء، وقالوا لأبى بكر ما قالوا فرد عليهم قائلا:

والله لئن كان قاله لقد صدق. قالوا: تصدقه على ذلك؟ قال إنى أصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء، وقد تمادى القوم فى لجاجهم وحوارهم يسألون الرسول (ﷺ) فى تعنت عن بيت المقدس. ومنهم من كان قد رآه وظنوا أنهم بهذه الأسئلة سيوقعون الرسول (ﷺ) فى حرج ولكنه وهو المؤيد من قبل ربه قد وصف لهم بيت المقدس وصفًا كاملاً فى غاية الدقة وأخبرهم عن آياته يقول الرسول (ﷺ) فجعلت أخبرهم عن آياته فالتبس على بعض الشىء فجلى الله لى بيت المقدس ثم جعلت أنظر إليه دون دار عقيل وأنعته لهم: فقالوا: أما النعت فقد أصاب.

وكان أبو بكر كلما وصف لهم الرسول - ﷺ - وصفا يقول: صدق أشهد انك رسول الله، ثم أخبرهم عن عيرهم وعن أحمالها وعن دقائق الملابسات ووصفها أكمل وصف، وقال لهم تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان محيطتان. ومع وضوح الأدلة فقد لج القوم فى عنادهم ولم يصدقوا تلك المعجزة الواضحة ..

وفى رحلة الإسراء والمعراج فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة وهى الصلة القوية بين العبد وربه، وكانت القبلة آنذاك هى صخرة بيت المقدس حيث أمر الرسول (ﷺ) باستقبالها. وكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو يستقبل صخرة بيت المقدس.

الرحلة الخالدة

سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله، لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير - صدق الله العظيم - سورة الإسراء - الآية الأولى.

الإسراء والمعراج كلمتان صغيرتان فى اللفظ لكنهما كبيرتان فى المغزى والمعنى والمحتوى، رحلة من مكة إلى بيت المقدس، ورحلة من بيت المقدس الى السموات العلى، أى عظمة هذه العظمة، وأى مجد هذا المجد "واى جلال ناله رسول كريم أكبر من هذا الجلال، رعاية من الله عز وجل نبيه محمد ..

فى عصر الإبل وعصر البداوة، وفى عصر الأمية تجى رحلة مباركة من مكة إلى بيت المقدس فى ثوان، إن الطائرة المسرعة تحتاج إلى ساعات ولكنها رحلة من السماء معجزة من السماء، من مكة إلى بيت المقدس، فى ثوان ثم يصلى رسول الله بالأنبياء إماما، إبراهيم، موسى، عيسى، هارون، إدريس، زكريا، .. إلخ هؤلاء الأنبياء الكرام، وتفتح له أبواب السموات العلى، ثم يأخذ بيده جبريل إلى ما وراء ذلك إلى سدرة المنتهى حيث النور والجلال، والعظمة والكبرياء، والمجد العظيم، والقدرة الفائقة والعظمة الإلهية لا عظمة بعدها، ويخاطبه الله عز وجل التحيات لله والطيبات، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، ويرد الرسول ﷺ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وكذا يحاط الرسول الأعظم بالرعاية الكبرى من الله عز وجل.

هذا كله فى عصر لم يبلغ العلم فيه مداه، فى عصر ليست فيه كشوفات علمية ولا مخترعات ولا علماء، ولا مراصد أو آلات، ولا قدرة مادية تحرك العلم والعلماء الى مثل هذا الصنيع، أو مثل هذه المعجزة.

أمم كبيرة اليوم صعدت إلى الفضاء بطاقاتها وبمقدرتها المادية وبعلمائها وبمراصدها، وبكل ما وصل إليه العقل البشرى على امتداد آلاف السنين من كشوف، ومن اهتداء إلى سنن الله فى الكون.

وراء ذلك جيوش كبيرة تعمل من أجل الفضاء من الباحثين والراصدين والعلماء والطاقات الكبيرة المجندة، ومن الملايين من الدولارات التى تنفق فى هذا السبيل، أما فرد واحد فى بلد أمى لا يعرف للحضارة معنى، ويسير من مكة إلى بيت المقدس فى ثوان، ويصعد به ذلك إلى السموات العلى، ويقف أمام سدرة المنتهى، ويناجى ربه، ويناجيه ربه، فهذا هو المجد الأكبر، هذه هى المعجزة العظمى، هذا هو الجلال الذى لا جلال بعده، هذا هو التكريم الإلهى العظيم لرسوله الكريم ولأمته الأمة الوسط.

والمعروف أن الإسراء والمعراج كانت قبل الهجرة، والمكان الذى بدأت منه رحلة الإسراء هو بيت أم هانئ وفى رواية أخرى فى شعب أبى طالب، وفى رواية أخرى فى المسجد الحرام وقد وافق العلماء بين هذه الروايات بأن هذه الرحلة بدأت من بيت أم هانئ بنت عم رسول الله، وهو قريب من شعب أبى طالب، ثم أخذ جبريل بيد محمد إلى المسجد الحرام حيث شق صدره وملأه علما وحكمة، نورًا وإيمانًا ثم أركبه البراق وسار به إلى بيت المقدس.

هذه الرحلة العظيمة التى طبقت شهرتها الآفاق، وتحدث بها كتاب السير والتى نزل فيها نقل كريم من كتاب الله العظيم "سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم قوله عز وجل" ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى" .. إلى أن يقول الله عز وجل" ولقد رأى من آيات ربه الكبرى" النقل يؤيد هذه المعجزة والعقل لا ينفيها بعد وصل العلم اليوم إلى إثبات مبدأ صحة الصعود فى الفضاء، وإذا كنا قبل عصر الفضاء نشك أو البعض يشك فى هذه الرحلة فجدير بهم أن يعودوا إلى رشدهم وصوابهم بعد أن استطاع البشر الصعود إلى الفضاء، والنزول إلى القمر، وما إلى ذلك كله.

رحلة هى المعجزة بعينها، المعجزة الإلهية التى أنزلها الله تأييدا لنبيه، وهل كان نبى الله فى حاجة إلى هذه المعجزة ليثبت الله بها إيمانه، وقلبه إن إيمان رسول الله وقلبه ويقينه فوق كل حاجة إلى قوة ولكن إرادة الله أن يدرك رسوله عظمة هذا الكون الكبير وعظمة خالقه القادر والعظيم. وعظمة مدبر الأرض

والسموات العلى، وأن يزداد يقينًا فوق يقينه بأن الله عز وجل يشمله بعونه ورعايته وبتأييده.

ماذا نقول عن معجزة الإسراء والمعراج وقد كانت حدث الأحداث ومعجزة المعجزات وحق للشعراء أن يقولوا ويبدعوا فقد كانت ملهما لكثير من الآثار العالمية فى الفكر الإنسانى، كالملاحم الكبرى، ملحمة رسالة الغفران للمعرى، وملحمة الكوميديا الإلهية لدانتى، وملحمة الفردوس المفقود لملتن، وما الى ذلك كله، مما نعلم .. إن هذه الرحلة للسموات ومناجاة الملائكة والحديث عن الجنة والنار، انما هو إلهام من إلهامات معجزة الإسراء والمعراج.

سيد الأنبياء

ومعجزة الإسراء والمعراج

ليلة الإثنين وما أدراك ما ليلة الإثنين

ليلة السابع والعشرين من رجب العام الخمسين للميلاد النبوى الشريف - الحادى والثلاثين من ديسمبر عام ٦١٦ ميلادية.

ليلة مباركة، كان فيها معجزة الإسراء والمعراج بسيد الأنبياء محمد ﷺ.

ورد ذكر هذه المعجزة فى آيات القرآن الكريم. وفى الاحاديث النبوية الشريفة مما لايدع مجالا لمسلم ان يرتاب فى حقائق انبانا بها رب السماء وحسبنا قوله تعالى:

"سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى. الذى باركنا حوله، لنريه من آياتنا: إنه هو السميع البصير"

وقوله تعالى:

"ولقد رآه نزلةً آخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى". وانظر إلى قوله تعالى فى مطلع سورة الإسراء "لنريه من آياتنا" وإلى قوله تعالى هنا من سورة النجم "لقد رأى من آيات ربه الكبرى" وتلك دلالة كبيرة على ما ورد فى سورة النجم هو مفصل حديث عن معراج رسول الله إلى السماء.

توفى أبو طالب عم رسول الله ﷺ فى الثلاثين من شهر شوال من العام التاسع والأربعين لميلاد رسول الله، وتوفيت خديجة أم المؤمنين بعد وفاة أبى طالب بثلاثة أيام، ثم خرج رسول الله إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر، ومعه زيد بن حارثة فأقام بها شهرا. ثم رجع إلى مكة فى جوار مطعم بن عدى وقد تكاثرت عليه الأحزان، الموت، وفقدان الأعزاء والحماة ثم الكفران الذى ليس بعده كفران، من كل من يدعوهم إلى الإيمان بدين الله.

وأراد الله عز وجل، ولاراد لما أراد أن تتم نعمته الكبرى على خاتم الأنبياء، فكانت معجزة الإسراء والمعراج فى الليلة الموعودة.

بينما رسول الله نائم في المسجد الحرام، في بيت أم هانئ، هند بنت أبي طالب، أخت علي بن أبي طالب، إذ جبريل ملك الوحي يوقظه من نومه، ويأخذ بيده، ويقوده إلى خارج البيت، ويسير به في رحلة ميمونة مباركة خالدة، فاسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكان هو آنذاك قبلة المسلمين منذ نزلت الرسالة وظل كذلك حتى حولت القبلة بعد الهجرة في شعبان من السنة الثانية، فصار المسجد الحرام هو قبلة المسلمين جميعا.

وفي المسجد الأقصى استقبلت الرسل والأنبياء رسول الله ﷺ، وصلى بهم إماما، ثم عرج جبريل بمحمد من بيت المقدس، إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى .. رسل الله وملائكته الكرام يحتفون بمحمد في كل مكان، وكل السماء، ويلقى آدم في السماء الأولى، وعيسى ويحيى في الثانية، ويوسف في الثالثة وإدريس في الرابعة وهارون في الخامسة وموسى في السادسة وإبراهيم في السابعة ..

رأى رسول الله من آيات ربه الكبرى ما رأى، وناجى الله عز وجل وناجاه، وفرض عليه وعلى أمته الصلاة، وعاين من أمر الله وسلطانه العظيم وقدرته المهيمنة على الكون والوجود ما عاين.

وتمت معجزة الإسراء والمعراج، الإسراء بالرحلة ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج بعروج رسول الله من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى وكانت هذه المعجزة الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين أكبر تأييد من الله لنبيه العظيم في محنته القاسية.

ودعنا من تكذيب مشركي مكة لرسول الله، فإن قدرة السماء فوق قدرة العقل البشرى، وما أمر "البراق" الذى ركبه رسول الله في رحلته إلا أمر القدرة الإلهية في عظيم سلطانها وجلالها .. مما لا يستطيع عقل بشر أن يتصور مدى عظمتها وإعجازها، وأمامنا الضوء الذى يسير بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو مترا في الثانية، وغير ذلك من آثار قدرة الله في الأرض والسماء.

وبعد معجزة الإسراء والمعراج، تحركت الدعوة وسارت من نصر إلى نصر، حتى دانت لها الأرض وآمن بها كل الناس.

رحلتان، وما أعزهما وأكرمهما عند الله وملائكته وعند الناس أجمعين، وصدق رسول الله بل صدقت السماء ..

فلما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله في الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار وكان ذلك فى العام الخمسين من مولده الشريف فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج، أراد الله بهم خيرا ..

فقال لهم: من أنتم؟

قالوا : نفر من الخزرج.

قال : أمن موالى يهود؟

قالوا : نعم.

قال : أفلا تجلسون أكلمكم.

قالوا : بلى.

فجلسوا معه.

فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان. فكان يهود إذا كان بينهم شىء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد، فلما كلم رسول الله أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض:

يا قوم، تعلموا والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه.

فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه.

ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا ..

وكانوا ستة من الخزرج، هم:

١- أسعد بن زرارة من بنى النجار.

٢- عوف بن الحارث من بنى النجار.

٣- رافع بن مالك.

٤- قطبة بن عامر.

٥- عقبة بن عامر.

٦- جابر بن عبد الله.

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولى

(١) رأينا هؤلاء الستة من الخزرج، الذين أسلموا، بعد أن دعاهم رسول الله فى الموسم إلى الإسلام.

فلما كان العام المقبل - الحادى والخمسون من الميلاد النبوى الكريم - وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة، فبايعوا رسول الله على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب، وتلك هى بيعة العقبة الأولى. والذى بايعوا رسول الله هم:

١- أسعد بن زرارة من بنى النجار.

٢- عوف بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار.

٣- معاذ بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار.

٤- رافع بن مالك.

٥- عبادة بن الصامت[١٦].

٦- العباس بن عبادة.

٧- عقبة بن عامر.

٨- وشهدها من الأوس أبو الهيثم بن النبهان، وكان في الجاهلية يكره الأصنام ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة، وكانا أول من أسلم من الأنصار بمكة، وتوفي أبو الهيثم عام ٢٠هـ كما تذكر بعض المصادر(١٧).

٩- عويم بن ساعدة.

١٠- ذكوان بن عبد قيس.

١١- يزيد بن ثعلبة.

١٢- قطبة بن عامر.

وهؤلاء الاثنا عشر بايعوا رسول الله على أن لا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوا الرسول في معروف؟ وقال لهم رسول الله:

فإن وفيتم فلكم الجنة.

وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم الله عز وجل، إن شاء غفر، وإن شاء عذب.

(٢) فلما انصرف القوم عن رسول الله بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين فسمي بالمدينة المقرئ، وكان نزوله على أسعد ابن زرارة، وهو أول من صلى الجمعة بالمسلمين في المدينة.

(٣) وفي اجتماع لمصعب بالمسلمين، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير وكانا مشركين: لا أبالك أنطلق إلى هذين الرجلين - أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير - الذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفائنا؟ فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت - وكان أسعد بن خالة سعد - كفيتك ذلك.

فأخذ أسيد حربته، ثم أقبل إليهم وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفائنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال له أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن. فقالا فيما يروى عنهما؟ والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، ثم شهد شهادة الحق. ثم قال لهما: ان ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه سعد بن معاذ.

وأخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم. فلما نظر إليه سعد مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاء أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادى، قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فو الله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد أخبرت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفرك.

فقام سعد مغضبا، فأخذ الحربة من يده، وخرج إليهما، ثم قال لأسعد" أتغشانا فى دارنا بما نكره؟ قال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت – ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال فعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم شهد سعد شهادة الحق.

ثم أخذ حربته، وانصرف، وأقبل عامدا إلى نادى قومه، ومعه أسعد، فقال قومه: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف عليهم قال:

يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة.

قال: وإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. فما أمسى منهم رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة.

وأقام مصعب عند أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

قال كعب: قدمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا، لميعاد مع رسول الله نتسلل مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان عن نسائنا:

١- نسيبة بنت كعب، أم عمارة من بني ماون بن النجار.

٢- وأسماء بنت عمرو من بني سلمة وهي أم منيع.

قال كعب بن مالك: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله حتى جاءنا ومعه العباس وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان هو أول متكلم قال العباس: يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وأنه قد أبا إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه، ومانعوه من خالفه فأنتم وماتحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله. فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم رسول الله: فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ البراء بيده وقال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع عنه نساءنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابرا عن كابر. وقال ابن النبهان أبو الهيثم: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا (عهودا) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم والدم والهدم والهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم:

١- (أبو أمامة) أسعد بن زرارة الخزرجي الأنصاري.

٢- سعد بن ربيع الخزرجي قتل في أحد.

٣- عبد الله بن رواحة الخزرجي.

٤- رافع بن مالك الخزرجي.

٥- البراء من معرور.

٦- عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي.

٧- عبادة بن الصامت الخزرجي.

٨- سعد بن عبادة الخزرجي.

٩- المنزر بن عمرو الخزرجي.

١٠- أسيد بن خضير الأوسي.

١١- سعد بن خيثمة الأوسي.

١٢- رفاعة بن عبد المنذر. ومن العلماء من يجعل مكانه أبا الهيثم بن النبهان وقال رسول الله للنقباء:

"أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء كفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي (المسلمين) قالوا له: نعم وقال سعد بن عبادة لقومه: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: أنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرفكم قتل اسلمتموه فمن الآن فهو والله أن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على مصيبة نقص الأموال وقتل الاشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا، والآخرة، قالوا له: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا، قال رسول الله لهم: الجنة. فقالوا: ابسط يدك فبسط رسول الله يده فبايعوه وكان من أول من بايع رسول الله أسعد ابن زرارة وقيل أبو الهيثم بن النبهان ثم بايع القوم ثم قال رسول الله: ارجعوا إلى رحالكم فقال العباس بن عباده والله الذى بعثك بالحق أن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا فقال رسول الله: لم نؤتمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم قال كعب بن مالك فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا عدت علينا

حلة قريش حتى جاؤنا فى منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج أنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما عن العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم عنكم.

فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من شىء وما علمناه وبعضنا ينظر إلى بعض ثم قام القوم وفيهم الحارس بن هشام بن المغيرة المخزومى وأتوا عبد الله ابن أبى بن سلول فقالوا له مثل ما قالوا فقال لهم: أن هذا الأمر جسيم ما علمته كان فانصرفوا عنه قال كعب: ونفر الناس من منى وعلمت قريش أن الخبر صادق قد كان فخرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر ابن عمرو ففاتهم المنذر وأخذوا سعدًا فقيدوه ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه وكان ذا شعر كثير قال سعد: فقال لى رجل ممن كان معهم ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد قلت بلى والله جبير بن مطعم والحارث ابن حرب قال ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة فقال لهما: أن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأباطح ليهتف بكما ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا قالا ومن هو؟ قال: سعد ابن عبادة قالا صدق والله إن كان ليجير لنا تجارتنا فجاءا فخلصاه من أيديهم وقدم المسلمون المدينة فأظهروا الإسلام وتسمى ببيعة العقبة الثانية بيعة الحرب وكانت العقبة الأولى بيعة النساء لأن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله فى الحرب فلما أذن لهم فيها وبايعهم رسول الله فى العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

حدث عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء وكان من الذين بايعوا فى العقبة الأولى على بيعة النساء بايعنا رسول الله بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم وكان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحل له الدعاء إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم

فهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فرارا بالحبشة أو بالمدينة وفي كل وجه فلما عنت قريش على الله وكذبوا نبيه وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه أذن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم.

فلما أذن الله له في الحرب وتابعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة ولمن اتبعه أمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الانصار وقال لهم: ان الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها فبدأوا في الهجرة إلى مدينة رسول الله.

إلى طيبة الخير

(١)

صدع الرسول - ﷺ - بأمر ربه، فبدأت عداوة قريش تظهر جليا، وأخذت تؤذى الرسول الكريم وصحابته، وتعرضهم لمختلف ألوان العذاب، حتى أمست مكة بالنسبة لهم بلد الهوان والحرمان، فكان عليهم أن يدعوا هذا البلد بعد أن صارت حياتهم فيق شقاء متواصلا واضطهادا قاسيا.

هاجر النبى وحبيبه أبو بكر الصديق إلى المدينة، وكان قد سبقهما إليها كثير من المسلمين، أجبرهم الظلم والإثم والطغيان على ترك مسقط رؤوسهم، ومهد طفولتهم، وملعب صباهم ..

وكانت هجرة المصطفى - ﷺ - أهم حدث فى تاريخ الإسلام حتى اتخذه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - مستهلا للتاريخ الهجرى ..

وقد وصل النبى - ﷺ - إلى يثرب (المدينة) فى يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول، الموافق ٢٨ من سبتمبر سنة ٦٢٢ميلادية.

(٢)

ولتحديد تاريخ الهجرة يمكن أن نبدأ من موت ابن الرسول (ص) ابراهيم وكسوف الشمس يومئذ .. فوقع هذان الحدثان، كسوف وموت ابراهيم، فى يوم واحد .. مكن عالما فلكيا كبيرا من أن يحدد هذا اليوم تحديدا دقيقا .. ثم يحدد بعد هذا يوم مولد محمد، ويوم هجرة الرسول من مكة إلى المدينة، ويوم انتقال نبى الله ورسوله إلى الرفيق الأعلى.

ثلاثة تواريخ من أعظم ما عرف العالم من تواريخ حددها العالم الفلكى الكبير محمود باشا الفلكى، أحد نوابغ المصريين فى أوائل القرن التاسع عشر.

راجع هذا العالم الفذ عشرات وعشرات من كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ الإسلامى .. وراجع كتب علماء الفلك المسلمين مثل البيرونى .. وكانت

معظم هذه الكتب فى ذلك العهد مخطوطات فى دور الكتب الكبرى فى أوروبا.. فعكف هناك على هذه الكتب زمنا طويلا، وخرج من هذا كله بدراسة علمية مبتكرة ضمنها كتابًا وصفه باللغة الفرنسية، ثم ترجم فى عهد قريب إلى اللغة العربية.

وجد محمود الفلكى أن المؤرخين اختلفوا فى تاريخ وفاة إبراهيم ابن محمد الرسول .. فمنهم من قال إنه توفى فى شهر رمضان، ومنهم من قال فى شهر جمادى الآخرة، ومنهم من قال إنه مات وعمره سنة وعشرة أشهر، ومنهم من قال بل كانت سنه ثمانية عشر شهرا فقط.

فراجع العالم الفلكى الجداول التى وضعها علماء الفلك عن كسوف الشمس وخسوف القمر فى تلك العهود القديمة .. ودورات الكسوف والخسوف حسب تحرك الشمس والقمر والأرض .. وأخذ يحسب حساباته الفلكية الدقيقة، فتبين على وجه الدقة أن الشمس كسف كسوفا كليا عند خط العرض الذى يقع عليه مدينة الرسول فى الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين بعد منتصف ليلة يوم ٢٧ يناير سنة ٦٣٢.

وهذا اليوم يوافق التاسع والعشرين من شهر شوال سنة عشر الهجرية.

(٣)

وكان تحديد هذا التاريخ هو نقطة البداية فى بحوث أخرى حدد فيها محمود الفلكى الأيام النبوية العظيمة ومنها الهجرة من مكة إلى المدينة، أو على الأصح يوم دخول الرسول عليه الصلاة والسلام مدينة يثرب.

وهنا يضيف العالم الفذ إلى مراجعه العديدة، مراجعة التوراة ومراجعة التواريخ العبرية، ذلك أن الرواة أجمعوا على أن الرسول دخل المدينة يوم عاشوراء وهو يوم يصوم فيه اليهود .. فسأل عن سبب صيامهم هذا اليوم، فقالوا لأنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى من الغرق .. فقال الرسول: نحن أولى بموسى منهم .. وصام .. وأمر المسلمين أن يصوموا يوم عاشوراء .. فلما فرضت بعد هذا فريضة صيام رمضان، لم يأمرهم ولم ينههم عن صوم يوم عاشوراء.

ولكن متى كان يوم عاشوراء من تلك السنة؟ .. هناك إجماع على أن رسول الله دخل المدينة يوم الإثنين .. فأخذ محمود الفلكى يبحث عن يوم الإثنين الذى

يوافق يوم عاشوراء "اليهودية" في ذلك الوقت .. فوجد أنه على وجه التحديد هو يوم عشرة من شهر "تشرى" في التقويم العبرى، الموافق يوم ٨ من شهر ربيع الاول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٤٢ ميلادية.

وكان الرواة القدماء قد اختلفوا فى تحديد اليوم .. ويرجع هذا الاختلاف إلى خلط بين عاشوراء "اليهودية" التى تقع فى الشهر الاول من السنة العبرية وبين عاشوراء "الإسلامية" التى تقع فى الشهر الأول من السنة العربية لشهر محرم.

(٤)

وانتقل محمود الفلكى إلى بحث ثالث هو تحديد مولد الرسول عليه الصلاة والسلام .. فاستعرض الروايات الكثيرة التى تحدثت عنه وحددتها بمناسبة معينة أو تاريخ محدد .. فمنها أنه كان فى عام الفيل بعد دخول أبرهة نجاشى الحبشة مكة بخمسين يوما .. ومنها ما يحدده بتاريخ فارس يتعلق بعهد كسرى أنى شروان .. ومنها ما يذكر سنة من التاريخ اليونانى، أو تاريخ الإسكندرية، وهى سنة ٨٤٢ .. ومنها ما يذكر التاريخ السريانى فيقول انه فى شهر نيسان سنة ٨٣٣ وإن كانت أغلب الروايات تحدد يوم المولد بالشهر العبرى، فتقول إنه فى شهر ربيع الأول .. ولكنها لم تتفق على يوم المولد. فتراوحت بين ثمانى ليالى مضت من الشهر، وبين عشر ليال، وبين سبع عشرة ليلة وإن اتفقت جميعا، ويثبت اتفاقها حديث نبوى أن المولد كان يوم الإثنين .. فقد سئل الرسول ﷺ عن يوم الإثنين فقال .. هذا يوم ولدت فيه وبعثت فيه وأنزل على الوحى فيه وهاجرت فيه.

وبعد مقارنات طويلة بين هذه التواريخ وغيرها ينتهى الباحث الفلكى إلى أن المولد كان خلال سنة ٥٧١ ميلادية .. ثم ينتقل إلى تحديد الشهر فيدرس ظاهرة سماوية ذكرتها كتب السيرة، وسجلها الفلكيون القدماء، وهو اقتران كوكبى المشترى وزحل .. ويضع لهذا جدولا رياضيا. فينتهى إلى أن المولد كان فى شهر أبريل. ثم ينتقل إلى تحديد اليوم، فيجد أن شهر ربيع الأول من تلك السنة قد بدأ يوم الاحد

الموافـق ١٢ أبريـل .. وإذن فقـد كـان المولـد العظيـم يـوم الإثنـين ٩ ربيـع الأول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ ميلادية.

وفى بحث آخر فـى هذا الكتاب يحدد محمـود الفلكـى يـوم وفـاة الرسـول عليه الصلاة والسلام .. وكم سنة عاشها الرسول العظيم فى هذه الحياة ..

لقد توفى الرسول يوم الاثنين وكـان يـوم ١٣ مـن ربيـع الأول .. الموافـق ٨ يونيو سنة ٦٢٢م ..

وبهذا يكون عمر رسول الله فى هذه الدنيا ٦١ سنة شمسية (الميلادية) زائدا ٤٨ يوما وهو ما يعادل بالسنوات القمرية "العربية" ٦٣ سنة زائدا ثلاثة أيام.

عيد الهجرة العظيم

ها نحن أولاء نستقبل عيد الهجرة العظيم، عيد مفتتح العام الهجرى الجديد، عام ١٤٠٦ هـ من الهجرة، وهو عام ١٤١٩ من البعثة النبوية، وعام ١٤٥٩ من الميلاد النبوى الشريف.

يا له من عيد، ويالها من مناسبة خالدة يذكرنا بها هذا اليوم الكبير. هذا اليوم المشرق. هذا اليوم الجليل فى تاريخ الإنسانية وفى تاريخ المشرق وفى تاريخ العروبة والإسلام ..

عيد كبير، فى تاريخنا الروحى والفكرى والدينى والادبى. عيد الهجرة النبوية الشريفة.

عيد الهجرة الخالدة، يعد أعظم أعياد الإنسانية قاطبة، لأنه يصلنا بالكعبة المشرفة وبالبيت الحرام، والكعبة أول بيت وضع للناس، أول بيت بنى لإعلان شريعة التوحيد كاملة فى الأرض، ويصلنا بالبيت الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل، ويصلنا بشريعة الحج فى الإسلام، وبمؤتمرها الإسلامى السنوى العظيم. ويصلنا بخطبة الوداع، التى أكد فيها الرسول ﷺ، حقوق الإنسان فى الإسلام، التى جاء بها القرآن الكريم، وأكدها تأكيدا حازما، ودعا إلى حفظها ورعاية حرمتها. وصيانة شريعتها.

وعيد الهجرة النبوية يذكرنا بأعظم حدث فى تاريخ الإنسانية كلها، وهو هجرة محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، من دار ظالمة إلى دار مؤمنة، من دار الشرك إلى دار التوحيد، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ومعه صاحبه الصديق أبو بكر رضى الله عنه. وبهذه الهجرة الخالدة نجا رسول الله ﷺ من مؤامرة دبرت فى مكة لاغتياله، ونجا دين الله من العسف والقهر والحصار الشديد إلى حيث الحرية والانطلاق والدعوة الإسلامية، وبدأ تأسيس الدولة الإسلامية الاولى فى المدينة، وبدأ تكوين المجتمع الإسلامى الأول فى هذه العاصمة التاريخية العظمى

التي شهدت أحداث التاريخ الكبرى، وبدأت انتصارات هذا المجتمع العظيم على أعداء الإسلام والإنسانية. نصرا بعد نصر.

أحداث كبرى يذكرنا بها عيد المحرم المتجدد عاما بعد عام.

والعيد هو لفتة كبيرة إلى الماضي، وتطلع قوي إلى المستقبل، ووقفة متانية، مع الحاضر وحسابه الشاق الطويل.

وأعيادنا الإسلامية تجئ كالبسمة الطاهرة على شفتي الطفولة البريئة، وكالضوء الباهر في آفاقنا المظلمة، وكالنسمة الباردة في لفحة الحر الشديدة. انها تجئ وسط هموم الحياة المتكاثرة التي تلقى أعباءها الثقيلة على كاهل المسلم الحر الابي، وماذا يذكر الإنسان المسلم وماذا ينسى؟

أيذكر الشيوعية والصليبية والصهيونية والعلمانية، وغيرها من المذاهب الهدامة التي تعمل جاهدة ما استطاعت إلى العمل سبيلا على محو الإسلام من الوجود.

أيذكر نفرا من أبناء الإسلام المعاصرين، يعملون ليل نهار، جاهدين على محو الإسلام وحربه حربا شعواء انتصارًا للفكر الأوربي وما وراء الفكر الاوربي من تاريخ طويل وأغراض استعمارية صليبية بربرية.

ماذا يذكر الإنسان المسلم وماذا يعي؟ أنه التاريخ وانه المصير، وانه الحياة والأحياء..

العيد يجئ بين هموم الحياة وأحداثها، يجئ بين الآلام والأحزان، فيملأ قلب المسلم بالثقة وبالأمل وبالفرج وبالثقة بنصر الله لعباده المؤمنين.

فالعيد يشرق صباحه بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين، وتحميد المسبحين، فيعيد الثقة والأمان إلى نفس الإنسان، في كل ديار المسلمين الفسيحة الشاسعة الأرجاء والعيد يدعونا إلى الوقوف مع الإنسان المسلم صفا واحدا مرصوصا في فرحه وحزنه، في أمله وألمه، في حربه المقدسة مع أعداء الإسلام في كل مكان وزمان العيد دائما هو الذي يبدد الظلام وهو الذي ينير الايام، وهو الذي يجمل

الأعوام، وهو الذى يفسر الأحلام، وهو الذى يقول للإنسانية كلها: أن نصر الله لعباده المؤمنين آت لا ريب فيه.

عيد الهجرة يحمل إلينا بشائر نصر الله للمؤمنين الصادقين من عباده وسط هموم الحياة وأحزانها، ووسط غيوم المؤامرات على الإسلام، ووسط التيارات القوية العنيفة العاتية التى تضمر للإسلام العداوة والبغضاء.

ولكن لا يأس مع الحياة ومع الإيمان ومع الإسلام ومع اليقين.

الإسلام يسدد له أعداؤه الطعنات فى كل مكان من الفليبين النائية إلى قلب أفريقيا الذى يحاربون فيه الله ورسوله حربا شديدا والذى يريد أن لا يدين إلا لله، ولا يركع ولا يسجد لغير الله ..

أيها العيد العظيم ..

أيها القادم بالبشرى وبالنصر الكريم.

لسوف تنتصر شريعة الله ودينه دائما أبدا مهما تمادى الظالمون، ومهما أضمر الشر المشركون والخائنون.

وبعد فلم تكن الهجرة فارقة بين عصرين من عمر دعوة الإسلام فحسب، ولم تكن بداية صنع أمة عظيمة على أساس متين من العقيدة والحب فقط، ولم تكن تمحيصًا لمن آمن من المهاجرين واختيارًا لمن صدق من الأنصار - وإنما كانت درسًا بليغًا للدعاة الذين ملكوا طريق الإيمان واختاروا القلوب ميدانًا لجهادهم يفتحونها بالنور، ويجذبونها بالسلوك الطيب والصدق والتجرد..

وأول ما يتعلم الدعاة من دروس الهجرة هو:

الإصرار على المبدإ والثبات.

فقد لاقى الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأوائل من الأهوال ما تذوب له شمم الجبال، لكنهم صمدوا بقيادة الداعى الخاتم وتحملوا الحصار والأذى فى النفس والأهل والمال، وأصروا مع الرسول العظيم على الدعوة، وصمموا معه على إنجاح الرسالة وتوصيل نور الله إلى كل قلب ينبض على وجه المعمورة حتى

أخرجوا من ديارهم وأموالهم. وتركوا مواطن الأهل والأجداد إلى بلد آخر تنفتح قلوب أهله لنور الدعوة وصدق الإيمان.

وضماناً لنجاح التنفيذ جعل الرسول السرية أساس الحركة.. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي دار أبي بكر إما في الصباح أو في المساء، ولكن حين أذن الله لرسوله بالهجرة أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة - وقت القيلولة الذى لا يتحرك فيه أحد في مكة - في ساعة كان لا يأتي فيها أبدًا.. جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في الدار سوى وأسماء. فقال: يا أبا بكر أخرج عني من عندك.. فقال أبو بكر: رضي الله عنه: إنما هما ابنتاى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أذن الله لي بالهجرة. فقال أبو بكر الصحبة يا رسول الله، وبكى من شدة فرحه لمرافقة حبيبه في رحلة الهجرة.

اختبار الرجال:

كل قائد مسئول عن اختيار رجاله، وعلى قدر توفيقه في اختيار الرجال يكون نجاحه في مهمته، وقد أعطى الحبيب الدعاة درسًا بليغًا في اختيار الرجال وتوزيع المهمات على كل فرد بما يتناسب وإمكانياته. ثابت الجنان رابط الجأش وله عصبة من بني هاشم تذود عنه وتحميه، وهذه لغة العصر آنذاك. ثم اختار أبا بكر للرفقة في الرحلة لسببين:

السبب الأول: أن أبا بكر يحب الرسول ﷺ ويبذل ماله كله في سبيل إنجاح دعوته. وأولاده سيكون لهم دور يقومون به لتغطية الرحلة.

والسبب الثاني: أن أبا بكر تاجر وله دراية بالرحلات والأسفار وقد جهز للرحلة تجهيزاً يتفق وخطرها ويتناسب وصعوبتها. فمن ذلك التجهيز إعداد راحلتين يأتي بهما الدليل عبد الله بن أريقط عند الغادر عندما ينقطع الطلب عن رسول الله ﷺ.

ومسئول تموين يأتي بالطعام للغار هي أسماء بنت أبي بكر.

ومسئول إعلام يأتي بأخبار مكة هو عبد اله بن أبي بكر.

ومسئول تغطية يمحو آثار أقدام عبد الله وأسماء، هو عامر بن أبى فهيرة راعى غنم أبى بكر.

والمتأمل لدور كل من هؤلاء "الجنود" يجد أن دوره مناسبًا له تمامًا، وقد أداه على أكمل وجه.

قصة الهجرة إلى المدينة

وقصة الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة تحتاج إلى تفصيل طويل .. ومن ثم كان لابد من حديث مفصل عنها:

١ - أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد الا من حبس أو فتن، الا على بن أبى طالب وأبو بكر.

وكان أبو بكر كثير ما يستأذن رسول الله فى الهجرة، فيقول له رسول الله: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، فيطمع أبو بكر أن يكونه.

٢ - ولما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا، وأصابوا منهم منعة، فخافوا خروج رسول الله إليهم، إذ قد عرفوا أنه قد أجمع لحربهم.

فاجتمعوا له فى دارة الندوة، وهى دار قصى التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها، وأخذوا يتشاورون فيما يصنعون فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك الاجتماع فى يوم الخميس السابع والعشرين من صفر عام ٦٢٢م.

وفى الدار اجتمع أشراف قريش: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان ابن حرب، وطعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر ابن الحارث، وأبو البخترى بن هشام، وزمة بن الأسود بن المطلب، وحكيم ابن حزام، وأبو جهل بن هشام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف وغيرهم.

قال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا، فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا.

فتشاوروا، قال قائل منهم: احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيرا ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم.

وقال أبو جهل، والله إن لى فيه لرأيا ما وقعتم عليه بعد:

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: - أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا قويا نسيبا وسيطا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه وأنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا.

ونزل جبريل، فحدث رسول الله بالامر، وقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه، وكان الرسول قد أعد من قبل عدته على الهجرة، متى يأذن له بها.

فلما كان الظلام اجتمعوا على باب الرسول يرصدونه، متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله مكانهم، قال لعلى: نم على فراشى، ببردى هذا، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم، وكان رسول الله ينام فى برده ذلك إذا نام.

وخرج رسول الله، فأخذ حفنة من تراب فى يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو الآيات (١ - ٩ من سورة يس): يس والقرآن الكريم إلى قوله تعالى: فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب وكان ذلك فى صباح يوم الجمعة الثامن والعشرين من صفر سنة ١ هجرية.

وجعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله، فيقولون: والله أن هذا لمحمد نائما عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، وقام على من الفراش.

ونزل قوله تعالى: "وإذ يمكر بك الذين كفروا: ليثبتوك، أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين".

٣- كيف كان تدبير الرسول للهجرة؟

كان أبو بكر ذا مال، وكان يستأذن رسول الله فى الهجرة. فيقول له رسول الله:

لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبا.

فطمع أبو بكر بأن يكون رسول الله هو صاحبه فى الهجرة.

فابتاع راحلتين، وحبسهما فى داره. يعلفهما إعدادا لذلك.

وكان رسول الله لا يخطئ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار. إما بكرة، وإما عشية.

حتى إذا كان ذلك اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله فى الهجرة والخروج من مكة، أتى رسول الله - كما تحدث عائشة بنت أبى بكر - بالهاجرة، فى ساعة كان لا يأتى فيها.

فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله هذه الساعة إلا لامر حدث.

ولما دخل رسول الله تاخر له أبو بكر عن سريره، فجلس عليه. فقال رسول الله: أخرج عنى من عندك. وكان عنده عائشة وأسماء، فقال: يا رسول الله انما هما ابنتاى، وما ذاك فداك أبى وأمى، فقال له ﷺ: إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.

قال ﷺ: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ، ثم قال: يا نبى الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا.

فاستأجرا عبد الله بن أريقط، وكانت أمه من بنى سهم بن عمرو، وكان مشركا، يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، يرعاهما لميعادها.

ولم يعلم أحد بهجرة رسول الله إلا على وأبو بكر، وبيت أبى بكر ..

أما على فقد امره رسول الله أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس. وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.

٤- وفى الليلة الموعودة[١٨] خرج رسول الله من داره، وأمر أبا بكر ليصحبه فى هجرته، وخرجا من خرخة[١٩] لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بجبل ثور أسفل مكة[٢٠]. قد خلاه. ومكثا فيه .. وأصبح فتيان قريش الذين كانوا يرصدون رسول الله، فدخلوا الدار، فقام على عن فراشه، فلما دنوا منه عرفوه، وقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدرى، أو رقيبا كنت عليه، امرتموه، بالخروج فخرج، فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه ..

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارا ثم ياتيهما اذا امسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر.

وامر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما، ياتيهما إذا أمسى فى الغار، فاحتلبا وذبحا، ويعفى بالغنم على إثر عبد الله ابن أبى بكر.

وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام اذا امست بما يصلحهما وسميت ذات النطاقين[٢١].

وأقام رسول الله فى الغار ثلاثة أيام بلياليها، ومعه أبو بكر.

وخرج رسول الله من الغار بعد ثلاث وذلك فى صباح يوم الإثنين غرة ربيع الأول سنة ١هـ. فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى الرسول قدم له أفضلهما، ثم قال: اركب فداك أبى وأمى، فقال رسول الله: إنى لا أركب بعيرا ليس لى. فقال أبو بكر: فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى. قال: لا، ولكن، ما الثمن الذى ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا، قال ﷺ: قد أخذتها به، قال: هى لك يا رسول الله: فركبها وانطلقا. وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق، وكان خروجه من مكة إلى المدينة يوم الإثنين.

٥- قالت أسماء: لما خرج رسول الله وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل، فوقفوا على الباب، فخرجت إليهم، فقالوا .. أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ قلت: لا

أدرى والله أين أبى، فرفع أبو جهل - لعنه الله - يده، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .. ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاث ليال، وما ندرى أين وجهة رسول الله، ثم عرفنا أن وجهته إلى المدينة:

وكان أبو بكر حين أراد الخروج احتمل ماله كله معه، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه، قالت أسماء: فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله أنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت له أسماء، كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا، وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت كان يضع ماله فيه، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده، وقالت له: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم، قالت أسماء: ولا والله ما ترك لنا أبو بكر شيئا، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

٦- وسار الركب الكريم، رسول الله، والصديق، ومعهما عامر ابن فهيرة مولى أبى بكر، وعبد الله بن أريقط دليلهما.

وكانت قريش لما خرج رسول الله من مكة مهاجرا إلى المدينة جعلت فيه مائة ناقة لمن يرده عليهم.

قال سراقة بن مالك[٢٢]: بينما أنا جالس فى نادى قومى إذا أقبل رجل منا حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ثلاثة رجال مروا على آنفا، إنى لأراهم محمدا وأصحابه، فأومأت إليه بعينى أن اسكت، وقلت: إنما هم بنوفلان ينشدون ضالة لهم، ثم مكثت قليلا. وقمت، فدخلت بيتى، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى، وأمرت بسلاحى فأخرج لى، ثم انطلقت فلبست لامتى، وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة ناقة. فركبت، فبينما فرسى يعدو عثر بى، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا؟ فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت فى إثره، فبينما فرسى تشتد بى عثر بى، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا، فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت فى إثره، فلما بدا لى القوم، ورأيتهم عثر بى فرسى، فسقطت عنه، وعرفت أنه قد منع منى، وأنه ظاهر، فناديت: أنا سراقة، انظرونى أكلكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه.

فقال رسول الله لابى بكر: قل وما تبتغى منا؟. فقال ذلك ابو بكر. فقلت: تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك.

قال: أكتب له يا أبا بكر. فكتب لى كتابا فى عظم أو فى رقعة أو فى خرقة. ثم ألقاه الى، فأخذته فجعلته فى كنانتى.

ثم رجعت. فسكت. فلم أذكر شيئا مما كان، حتى إذا كان فتح مكة وفرغ من حنين والطائف. خرجت ومعى الكتاب لألقاه، فلقيته بالجعرانة[٢٣] فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار. فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون: اليك. اليك. ماذا تريد؟ فدنوت من رسول الله وهو على ناقته فرفعت يدى بالكتاب. ثم قلت: يا رسول الله. هذا كتابك لى. وأنا سراقة فقال رسول الله: "يوم وفاء وبر. ادنه. فدنوت منه. فأسلمت ثم رجعت إلى قومى. فسقت إلى رسول الله صدقتى.

٧- سلك بهما عبد الله بن أريقط أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل أسفل من عسفان على بعد مرحلتين من مكة.

ثم أمج وهى واد يأخذ من حرة بنى سليم،

ثم قديدا وهى ماء بالحجاز بين مكة والمدينة.

ثم سلك بهما الخرار وهو موضع بينهما.

ثم ثنية المرة.

ثم لقفا ثنية بين مكة والمدينة

ثم مد لجة لقف.

ثم مد لجة مجاج.

ثم مرجع من ذى الغضوين.

ثم بطن ذى كشر بين مكة والمدينة.

ثم الجد أجد.

ثم الأجرد.

ثم ذا سلم وهو جبل من جبال القبلية.

ثم بطن أعدا مدلجة تعهن وهو ماء وموضع على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة.

ثم العبابيد.

ثم القاحة على ثلاثة مراحل من المدينة قبل السقيا.

ثم العرج وهو عقبة بين مكة والمدينة، وهنا أبطأ عليهما بعض إبلهما. فحمل رسول الله رجل من أسلم، اسمه أوس بن حجر على جمل له إلى المدينة وبعث معه غلاما يقال له مسعود بن هنيدة.

ثم ثنية العائر وهي عن يمين ركوبة عند العرج، وكان دليله ﷺ إليها عبد الله ذو البجادين.

ثم بطن رئم وهو على أربعة برد من المدينة.

ثم قباء في يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول على الأصح حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل[٢٤] فنزل ﷺ على بني عمرو بن عوف وهذا اليوم يوافق العشرين من سبتمبر عام ٦٣٢م.

٨- وعن بعض الصحابة: لما سمعنا عن خروج رسول الله من مكة كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا، ننتظر رسول الله، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس، فإذا لم نجد ظلا دخلنا بيوتنا.

وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت، وكان أول من رآه رجل من اليهود. فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة[٢٥] هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله، وهو في ظل نخلة: ومعه أبو بكر في مثل سنه وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك، وما يعرفونه من أبي بكر، ولما زال الظل عن رسول الله قام أبو بكر، فأظله بردائه، فعرفنا رسول الله عند ذلك.

٩- ونزل رسول الله على كلثوم[٢٦] بن هدم أخي بني عمرو بن عوف. ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة لأنه كان عزبا لا أهل له، وكان منزله منزل العزاب من أصحاب رسول الله من المهاجرين.

ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف، أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح[٢٧] وقيل: نزل على خارجة بن زيد.

وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليالي وأيامها، حتى أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، فلما فرغ منها لحق برسول الله، فنزل معه على كلثوم بن هدم، ليلة أو ليلتين.

وأقام رسول الله بقباء، وفي صباح يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ١هـ، خرج منها إلى المدينة، فأدرك رسول الله الجمعة، في بني سالم ابن عوف. فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانوناه فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[٢٨] ودخل المدينة في اليوم نفسه.

فأتاه عتبان بن مالك، وعباس بن عبادة في رجال من بني سالم بن عوف، فقالوا:

يا رسول الله: أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة.

قال صلى الله عليه وسلم:

خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، يريد ناقته.

فلما كان في دار بني بياضة تلقاه رجال منهم، فقالوا:

يا رسول الله، هلم إلينا، في العدد والعدة والمنعة.

قال: خلو سبيلها فإنها مأمورة.

وعند دار بني ساعدة أعترضه سعد بن عبادة في رجال من بني ساعدة فقالوا:

يا رسول الله هلم إلينا.

فقال: خلو سبيلها فإنها مأمورة.

فلما وصل دار أخواله بني عدى من بني النجار، وكانت أم عبد المطلب منهم وهي سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم، اعترضه رجال منهم، فقالوا:

يا رسول الله، هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة.

قال خلوا سبيلها فإنها مأمورة:

فلما وصل دار مالك بن النجار بركت عند باب مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار وكانا في حجر معاذ بن عفراء، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو ورسول الله واضع لناقته زمامها لا يثنيها به، ثم قامت فسارت غير بعيدة، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها الأول، فبركت فيه، فنزل عنها رسول الله[٢٩].

بناء المسجد النبوى:

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحلة النبى ﷺ، فوضعه فى بيته ونـزل عليه رسول الله حتى بنى مسجده ومسكنه.

وسأل ﷺ عن المربد: لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لى، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً.

فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً، وعمل فيه رسول الله. ومعه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه.

ثم انتقل ﷺ من بيت أبى أيوب إلى مساكنه.

وحدث أبو أيوب: لما نزل على رسول الله، فى بيتى، نـزل فى السفل، وأنا وأم أيوب فى العلو.

فقلت له يا نبى الله، بأبى أنت وأمى، إنى لأكره، وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى، فاظهر أنت فتكون فى العلو.

وننزل نحن فنكون فى السفل فقال ﷺ: "يا أبا أيوب أن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت[30].

وتم بناء المسجد الشريف وبناء مساكن أزواج رسول الله، واتخذها الرسول سكنا له ولأزواجه أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

ومات والمسجد يبنى أسعد بن زرارة رحمه الله وكان نقيب بنى النجار فصار رسول الله نقيب بنى النجار، وهم أخواله.

ومن هنا نعلم أن رسول الله أقام بالمدينة منذ قدمها شهر ربيع الأول وظل إلى صفر عام اثنين من الهجرة، حتى بنى مسجده ومساكنه واستجمع له إسلام الأنصار حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا بعض بطون قلائل من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم.

المعجزة الكبرى

في ذكرى الهجرة تتلاقى الكثير من العظات والعبر والمعاني والأحداث ونتذكر انه ما من مفكر أو نبي أو إنسان هاجر من وطنه الى مكان آخر الا وكان قلبه موطنا للخوف والرعب والفزع وعدم الطمأنينة ماعدا رسول الله ﷺ فهو في هجرته وقبل هجرته وبعد هجرته كان قلبه مملوءا بالأمن والامان بالسلام والرحمة والثقة والإيمان واليقين بعظمة الله ودعوته وحياطته لدينه، ونبيه. ومن شان المهاجر ان يستكين الى القلق والحيرة والخوف لانه يقدم على مكان مجهول ويسير في رحلة مجهولة ولا يعلم من نتائج أمره شيئا ولا من مصيره أمرا.

ولكن عز وجل ملأ قلب رسوله الكريم في هجرته العظيمة بالنور والضياء بالأمل والتفاؤل والثقة. فكان ﷺ قدوة للناس عامة وقدوة لصاحبه حتى أن سراقة حين تتبع الموكب الكريم في الهجرة ثم لحق برسول الله - ﷺ - وأيقن انه قاب قوسين أو أدنى من الظفر بمحمد وصاحبه هاله الأمر وأفزعه ما أفزعه .. ومن حماية الله لرسوله في هذه اللحظات الحاسمة في تاريخ العالم والإسلام والمسلمين أن رسول الله - ﷺ - مسح بيديه على كتفي سراقة بعد أن استسلم صاغرا مذعنا ملقيا سلاحه ولاجئا إلى رسول الله - ﷺ - ليحميه من الفزع الذى أحاط به، ثم قال رسول الله - ﷺ - بعد أن أعطاه كتاب أمان: يا سراقة كيف أنت إذا لبست تاج كسرى وسواريه؟ أيحلم إنسان من البشر بل ملك من الملائكة بتاج كسرى ملك الملوك وسواريه لا يتصور عقل أن يكون ذلك، فكان من الممكن أن يمنيه الرسول - ﷺ - بالنجاة. بالمال أو بالغنى بالأولاد .. فتلك هي المعجزة الكبرى، وفي عهد عمر عندما فتحت فارس واستولى المسلمون على تاج كسرى وسواريه أمر عمر بأن يجيء سراقة، وجاء وألبسه عمر تاج كسرى وسواريه وطاف به في المدينة والمسلمون

من حوله يهللون ويكبرون ويحمدون الله عز وجل على هذا الفتح العظيم .. هذه معجزات الهجرة ومن آياتها العظام.

الهجرة كانت بداية شوكة الإسلام وعزته ومنعته وقوته وكانت عزة لكتابه الكريم وكانت مظهرا لتأييد الله وعز وجل للمسلمين. هاجر المسلمون فارين بدينهم من مكة وتاركين وطنهم وأعوانهم وأولادهم، تاركين أجمل تراث عزيز عليهم ولكنهم هاجروا وقلوبهم مطمئنة إلى الخير والفوز والنصر. "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم".

مـــولـــد أمـــة

الأمة العربية أمة متميزة فى التاريخ وفى الحضارة وفى العقيدة وفى الفكر وفى اللغة أيضًا.

وجميع السلالات العربية فى العالم العربى والإسلامى .. كانت بيئتها الأولى التى نشأت فيها وتفرعت منها، هى الجزيرة العربية، ومن الجزيرة العربية كانت الهجرات العربية إلى آسيا وأفريقيا وكل مكان فى العالم.

وهذه السلالات العربية لم تكن تعد فى نشأتها الاولى أمة، بل كانت تعد قبائل وعشائر وبطونا وأفخادا .. إنما صارت أمة، وصارت للامة دولة، وصار للدولة امبراطورية، ومثلت الامبراطورية حضارة بالإسلام وبرسول الإسلام وعلى يدى محمد بن عبد الله، ﷺ، وأيدى خلفائه الأكرمين، رضوان الله عليهم أجمعين.

إن ميلاد الأمة العربية، والدولة العربية، إنما تم بعد الهجرة النبوية الشريفة، فلم تكن العرب تعرف الأمة، ولا معنى الدولة، ولا شيئا من التنظيم السياسى للحكم والإدارة، إلا فى الإسلام، وبعد هجرة خير الأنام، عليه الصلاة والسلام.

وقد نقول: ألم تكن للعرب فى الجاهلية دولة فى الحيرة، وهى دولة المناذرة اللخميين، التى حكمت زمنا طويلا، وألم تكن لهم فى الشام دولة حكمت حقبة طويلة، هى دولة الغساسنة التى كانت على خلاف دائم مع الحيرة؟

وقد نجيب عن ذلك بأن الحكم فى هاتين الدولتين وفى اليمن كذلك كان أقرب إلى الحكم القبلى منه إلى حكم الدولة المتحضرة أو بأن دولة المناذرة كانت تحت نفوذ الفرس، والدولة فيها خاضعة للنظام الفارسى، ودولة الغساسنة كانت تحت نفوذ الروم، والنظام فيها مشتق من النظام البيزنطى واليمن كانت أنماط الحياة فيه مختلفة، من النمط الفارسى إلى النمط الحبشى إلى النمط اليونانى والرومانى ..

ومع ذلك كله فإننا نقول إن ميلاد الامة العربية والدولة العربية ارتبط حقيقة بالهجرة وبالمدينة المنورة، على ساكنها الفضل والصدق والسلام.

فبعد الهجرة نظم الرسول الأكرم (ص) الدولة الإسلامية الأولى في المدينة على أكمل وجه، وصارت معالم الحياة فيها مختلفة تمام الاختلاف عن الأنماط القديمة القبلية.

وصارت هذه الدولة الإسلامية الأولى تمثل ميلاد أمة، ومبعث شعب ومنشا حضارة هى حضارة الإسلام ..

وإذا كانت الهجرة هى الحد الفاصل بين حياة القبلية العربية وحياة الدولة الإسلامية والأمة المحمدية الجديدة، فإن ذلك كله إنما كان الفضل الأكبر فيه للميلاد النبوى الشريف، ولما كان للهجرة المكانة الكبيرة، وكانت هى الحد الفاصل بين عصرين: بدأ التاريخ الإسلامي المجيد بها حسبما رأى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين رضى الله عنه.

فالميلاد النبوى هو فى حقيقته ميلاد أمة هى الأمة العربية، التى كانت تعيش من قبل حياة جاهلية ممعنة فى الروح الجاهلية، ولم تعرف العرب الحياة المتمدنة المتحضرة إلا فى ظلال الإسلام العظيم، وفى كنف رسول الإسلام، محمد ابن عبد الله، وبعد الهجرة النبوية الشريفة.

ميلاد أمة، ومبعث دولة، ومنشأ حضارة الإسلام، التى هزت الدنيا إنما كان ذلك كله بالإسلام وفى الإسلام ولخدمة الإسلام ديننا الخالد العظيم.

والأمة العربية والإسلامية حفية بهذه الذكرى الخالدة، لا تفتأ تحوطها بكل إجلال وتكريم ..

فميلاد رسول الله هو الميلاد الحقيقى للأمة العربية والحضارة الإسلامية صلى الله عليه فى الأولين، وصلى الله عليه فى الآخرين.

وحسبنا بحضارة الإسلام إنها الحضارة الزاهرة التى استظل العالم بظلها قرونا مديدة، وأنها هى التى نشرت فى الدنيا كلها مبادئ الإسلام الشريف من الحرية والمساواة والإخاء والعدالة والسلام ..

صلى الله على رسول الله محمد فى العالمين وصلى عليه فى الملأ الاعلى إلى يوم الدين.

الذكرى الخالدة

اليوم يوم الهجرة، يوم الذكرى الخالدة، يوم الحدث العظيم فى تاريخ الإسلام والمسلمين وتقبل الذكرى هذا العام وقد مضى على الإسلام أربعة عشر قرنا من الزمان وبدأت مطالع القرن الخامس عشر الهجرى ترسل نورها فى الآفاق.

وكانت الهجرة أمرا لا مفر منه فقد تآمرت قريش الممادية فى جبروتها وعسفها. وفى مقاومتها لدين الله، ودعوة الإسلام، أجمعت على اغتيال رسول الله -ﷺ- فى ليلة حافلة بالاحداث. تمهيدا للقضاء على كل مسلم يعبد الله. بل على دعوة الإسلام ومسيرته الخالدة، وكانت ليلة الهجرة. بل ساعتها. هى ليلة وساعة المؤامرة، وكان ذلك معجزة المعجزات فى حياة الرسول -ﷺ- والنصر الكبير للرسالة والدعوة للإنسانية كلها، لما صار للهجرة من الآثار الباقية على وجه الزمان فى تاريخ البشرية والحضارة، وفى حياة الشعوب والامم عامة، والشعوب الإسلامية على وجه الخصوص .. وقد نالت هذه الذكرى ما نالته من إكبار المسلمين ومن إجماعهم على أن يكون العام الذى حدثت فيه هذه المعجزة هو مطلع التاريخ الهجرى الكبير.

ولولا الهجرة لقتل الرسول -ﷺ- ووئدت الرسالة، ولعاشت الإنسانية حتى اليوم فى ظلال الوثنية والجهل والجاهلية، ولما شقت مواكب العلم والتقدم والتوحيد طريقها إلى كل مكان، ولما قامت الفسطاط والقاهرة وبغداد والقيروان وقرطبة، وكبريات المدن الإسلامية التى صارت منارات رفيعة المعرفة والفكر والأدب والمدنية عامة.

إن النصر الكبير الذى ناله الإسلام بالهجرة كان مقدمة رائعة: لبدر، واليرموك، والقادسية، وحطين، وعين جالوت، وكبريات معارك الإسلام.

وقبل الهجرة صدت قريش العرب والقبائل عن الدخول فى الإسلام وعذبت واضطهدت المسلمين الأولين فى مكة. وطالما كان يردد رسول الله -ﷺ- قوله "يا

ويح قريش، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن لم يفعلوا قاتلوا ربهم قوة. فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله أو أهلك دونه، وقالها رسول الله - ﷺ - في صلح الحديبية. وهو في أوج قوته وانتصاراته، فماذا هو قائل وهو في مكة مضطهد محاصر مغلوب على أمره، وأصحابه بين معذب ومفتون ومقتول في سبيل الله؟

قبل الهجرة بسنوات كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة. ثم كانت رحلة رسول الله - ﷺ - إلى الطائف، ثم كان فشل محاولات قريش لاحتواء الرسالة والرسول ثم كانت وفاة أبي طالب وخديجة، وكان الإسراء والمعراج. ثم كانت بيعة العقبة الأولى والثانية، وهجرة رسول الله فكان لها في الجزيرة العربية دوى لم يكن لأي حدث آخر من أحداث التاريخ فيها.

ومن رحلة الطائف في العام الخمسين للميلاد النبوي إلى بيعة العقبة الأولى في العام الواحد والخمسين، إلى بيعة العقبة الثانية أو الكبرى في العام الثاني والخمسين، إلى مؤامرة قريش الدنيئة الماكرة التي دبرتها في دار الندوة لاغتيال رسول الله - ﷺ - إلى حدث الهجرة العظيم كانت أصداء الأحداث الكبيرة المثيرة هذه تملأ آفاق جزيرة العرب من أقصاها إلى أدناها.

وما أروع هذا الموكب الصغير في رحلته العظيمة الخالدة. رحلة السلام والحرية والتوحيد موكب رسول الله - ﷺ - وصاحبه الصديق. في الرحلة من مكة إلى المدينة. هذه الرحلة التي صارت معلما من معالم التاريخ الإنساني الكبير، وضوءا هاديا لقافلة التوحيد والحضارة الزاحفة على وجه الأرض.

لقد قالت الهجرة بلسان الرسول. إنه لا معنى للحياة بدون إيمان، ولا قيمة للإنسان بدون عقيدة، وإن الدين أغلى عندي من المال والدار والأهل والوطن .. وقالت بلسانه كذلك: إني داعية سلام إذا أردتم الحرب فلن أكون من جناتها،

وساخرج مهاجرا لتكون كلمة الله هى العليا. فكلمة الله أبقى وأسمى. ولا معنى للحياة فى ظلال الوثنية الجاهلية.

وفشلت قريش فى رد رسول الله - ﷺ - إلى مكة. وعاد سراقة مذعورا مبهورا، وحملت ليلة الثانى عشر من ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة المحمدية - الثامن والعشرين من يونيو عام ٦٢٢ للميلاد. وهى الليلة التى وصل الرسول فيها إلى قباء أعلى أبواب المدينة، حملت هذه الليلة الخالدة أعظم ذكريات التاريخ والنصر والجلال والخلود.

وبالهجرة صارت للإسلام فى المدينة دولة وقوة، وانتقل الإسلام من ناحية النظرية إلى جانب التطبيق. فكان له مجتمع. وصار له كيان ووجود ووطن يأوى اليه وقوة تحميه وتدافع عنه.

وكان بناء حجرة أم المؤمنين سودة، ثم بناء المسجد النبوى الشريف، وإطلاق اسم "مدينة رسول الله" و"طيبة" على يثرب. وتدفق المهاجرين عليها. والمؤاخاة الفذة بين المهاجرين والأنصار، ثم معاهدة السلام مع يهود المدينة. وتحويل القبلة إلى الكعبة، وفرض الصيام والزكاة .. كان كل ذلك مقدمة لأعظم الانتصارات والأعمال الخالدة الباقية على وجه الزمان، مقدمة دين الإسلام والسلام.

أن موكب أهل المدينة فى استقبال رسول الله - ﷺ - وصاحبه أبى بكر. وهما يدخلانها لهو - مع بساطته -من أروع المواكب فى تاريخ الإنسان والإنسانية. لأنه كان مقدمة رائعة لانتصارات الإسلام الكبرى، من أجل التوحيد والشرف والمبادئ الرفيعة، ومن أجل الحرية والحضارة فى سيادة كلمة الله فى الأرض. وفرض حقوق الإنسان وجعلها أكبر من كل حق وأكبر من الظلم والظلام والظالمين.

السودان دار الهجرتين

من المعروف في السيرة النبوية أن هجرة أصحاب رسول الله - ﷺ - الى أرض الحبشة كانت في رجب من العام الخامس للبعثة النبوية.

وتقص كتب السيرة أن رسول الله - ﷺ -: وقد رأى ما نزل باصحابه من المؤمنين به من البلاء والعذاب بسبب دخولهم في الإسلام. وهو لا يقدر على حمايتهم والدفاع عنهم: أشار عليهم بالهجرة الى الحبشة. فقال لهم: لو خرجتم الى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق. حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه. فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله - ﷺ - ثلاثة وثمانون عدا الأطفال: إلى حيث أشار عليهم نبي الله، مخافة الفتنة. وفرارا الى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

ومن المهاجرين: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله - ﷺ -، والزبير بن العوام، وجعفر بن أبي طالب، ومعه امرأته أسماء بنت عميس، وأبو عبيدة ابن الجراح، وعبد الله بن مسعود، وأخوه عتبة، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة المخزومي ومعه امرأته هند (أم سلمة)، وعثمان بن مظعون، وعبيد الله بن حذافة السهمي، وسواهم.

ونزل المهاجرون في أرض الحبشة وفي حماية ملكها النجاشي، في آخر رجب: وأقاموا في سلام وأمن يؤدون شعائر دينهم دون خوف أو اضطهاد. ولكن قريشا لم تسكت، فبعثت خلفهم وفدا من: عمرو بن العاص، وعبيد الله ابن ابي ربيعة - قبل إسلامهما - ومعهما هدايا إلى النجاشي وبطارقته، لرد المهاجرين إلى مكة وبلادهم التي هاجروا منها. وبعد لقاءات ومفاوضات أعلن النجاشي مرة أخرى أن المهاجرين في حمايته، وأنه لن يردهم إلى ديارهم، ورد هدايا قريش لها: وأوى المهاجرين، ومنحهم حق اللجوء السياسي إلى بلاده، وشملهم بحمايته.

ومكث المهاجرون عدة شهور، شعبان ورمضان وشوال. حتى بلغهم أن قريشا وأهل مكة دخلوا في الإسلام، ورفعوا العذاب والاضطهاد عمن آمنوا برسول الله - ﷺ -: فعاد الكثير من هؤلاء إلى مكة، حيث كانت أمامهم المفاجاة الكبرى، وهى أن قريشا لا تزال في عمايتها وضلالها، وأن ما كان قد بلغهم انما هو مجرد شائعة أطلقتها قريش ليعود المهاجرون إلى مكة ليلقوا فيها ما كانوا يلقونه من قبل من عذاب واضطهاد .. وأمام هذه المفاجأة عاد الكثير من هؤلاء الى الهجرة للارض التى كانوا فيها - الحبشة - من جديد، وهذه هى الهجرة الثانية. وهى هجرة مرة أخرى إلى دار أمن وسلام، يؤدون فيها شعائر دينهم، دون رقيب أو تشريد أو مصادرة رزق ومال.

- ٢ -

ونحن نتساءل هنا: ما الحبشة التى هاجر إليها المسملون الأولون من صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، هاتين الهجرتين التاريخيتين المأثورتين؟

الجواب هنا أن الحبشة بمعناها الجغرافى الحالى غير الحبشية بمعناها القديم فى عصر الرسالة. وهذا ما نتناوله هنا فى هذا "المقال".

وقد كتب الدكتور العالم السودانى رئيس جامعة الخرطوم الأسبق وعضو المجمع اللغوى فى القاهرة فى مجلة العرب التى يصدرها العلامة حمد الجاسر من دار اليمامة بالرياض فى عدد شهر أغسطس ١٩٩٥، مقالا بعنوان: إلى الحبشة أم السودان كانت الهجرة؟ (ص٥٩٦ - ٦٠١ العدد نفسه).

وبعد ذلك، ومن قريب ظهر كتاب جديد للعلامة الشيخ حسن الفاتح الشيخ قريب الله رئيس جامعة أم درمان الإسلامية بعنوان "السودان دار الهجرتين للصحابة". والكتاب مثير حقا، وله أهميته فى تقرير هذه الحقيقة المجهولة من تاريخ السيرة النبوية الشريفة، ويؤكد المؤلف فى كتابه أن السودان الحالية كانت هى دار الهجرتين: الاولى والثانية لصحابة رسول الله - ﷺ - ويثبت المؤلف فيه أن هاتين الهجرتين كانتا لبلاد السودان الحالية، لا إلى بلاد الحبشة المعروفة اليوم بأثيوبيا.

فما هى حجج هذا الرأى المثير حقا وما أدلته التى يستند اليها؟

ان العرب كانوا يسمون سواحل السودان "البر الحبشي". وكان لفظ "الحبشة" يطلق على ما يشمل بلاد أثيوبيا والنوبة وما بينهما اذ كان "بر السودان" المحازى "لسواكن"يسمى بالبر الحبشي.

يقول أبو الفداء فى تاريخه "المختصر فى أخبار البشر" تحت عنوان: "ذكر أمم السودان": من أعظم أممهم الحبش وبلادهم تقابل الحجاز ومن أسمائهم أيضا: النوبة والزنج والتكرور.

فلفظ السودان لغويا كان يطلق ويراد به ما يشمل المنطقة الشرقية الشمالية من القارة الأفريقية، وهى التى تشمل اليوم الحبشة والسودان والنوبة.

ويقول ابن خلدون فى تاريخه الكبير عن "النجاشى" ملك الحبشة: انه من أمة "الدمادم" وهى أعظم أمم السودان الواقعة حول الشاطئ الغربى للبحر الأحمر: و "الدمادم" يسمون أيضا باسم "النوبة" ولفظ "النجاشى" لقب كان يطلق على من يملك هذه البلاد. ومعنى لفظ "أصحمة" فى اللغة الأمهرية: العادل.

ويقول القزوينى فى كتابه "عجائب المخلوقات": إن العرب يطلقون اسم الحبشة على الأمم التى تسكن غرب الحجاز - أى مما يلى البحر الأحمر. على أن لفظ "السودان" - اسما للمنطقة المعروفة اليوم بدولة السودان لم يعرف إلا منذ عام ١٨٨٩م خلال الحكم الثنائى لها.

ويؤكد مؤلف كتاب "السودان دار الهجرتين" الحقائق التالية:

- ٣ -

أولا: إن المسلمين الأوائل الذين آمنوا برسالة الإسلام ومحمد - عليه الصلاة والسلام - إنما كانت هجرتهم إلى أرض السودان الحالية لا إلىأرض الحبشة. فالسودان هو دار الهجرتين التى لجأ إليها صحابة رسول الله - ﷺ -.

ثانيا: إن هؤلاء المهاجرين من الصحابة خرجوا من مكة فى رجب من العام الخامس لبعثة رسول الله - ﷺ - بعد أن أشار عليهم الرسول بالهجرة. ونزلوا فى مكان

يعرف باسم "الشعبية" على ساحل البحر الاحمر جنوبى "جدة". واستاجروا سفينة - أو سفينتين قاصدين بلاد الحبشة؛ فوصلوا فى نفس الشهر إلى ميناء سواكن على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر. ومنها ساروا إلى "سنار": وهذه المنطقة أغلب سكانها مهاجرون من بلاد العرب، ويتكلمون العربية.

ثالثا: إن المهاجرين أقاموا فى "سوبا" عاصمة مملكة "علوة" المعروفة فى بعض الوثائق القبطية باسم مملكة الحبش فى حماية الملك أصحمة النجاشى ورعايته.

ويؤكد ذلك ان الرحلةالبحرية لم تستغرق سوى وقت قصير. مما يدل على قرب المنطقة التى نزلوا فيها من سواحل الحجاز: ولو كانوا قد قصدوا ارض الحبشة الحالية لاستغرقت الرحلة فى البحر والبر عدة شهور.

رابعا: ويقول مؤلف كتاب "السودان دار الهجرتين": إن للحبشة بحدودها الدولية الحالية طريقين:

الأول: الطريق البحرى من الشعبية إلى "باب المندب" وطوله نحو ألف كم: ثم يضاف إلى ذلك المسافة البرية من باب المندب للوصول إلى أقرب نقطة نيلية فى الحبشة وهى بحيرة "تانا". ومقدار هذه المسافة البرية نحو الـ ٧٠٠كم.

وهذا الطريق على طوله ومشقته يعرض سالكه للخطر لانه كان فى استطاعة قريش أن تتعقب فيه قافلة المهاجرين وتاخذهم عنوة من البحر او البر وتردهم الى مكة.

كما نلحظ أن قيام المهاجرين من بلدة "الشعبية" لا من جدة كان لتضليل قريش وللأمان من تعقبها لهم لأن جدة هى المعروفة بأنها ميناء ركوب البحر ولا يخطر على الذهن أن هؤلاء المهاجرين سيركبون البحر من الشعبية.

الثانى: الطريق البرى جنوبى الحجاز وعسير واليمن وحضرموت حتى باب المندب وهو طريق جبلى وعر وعسير لا يأمن فيه سالكه ولا يثق فيه إن سلكه بالنجاة. وبعد ذلك يعبر باب المندب إلى غرب البحر الأحمر ليقطع مسافة برية أخرى للوصول إلى بحيرة تانا.

وهذا الطريق بشقيه البحرى والبرى يحتاج إلى عدة شهور لقطعه. بينما نعرف نحن أن المهاجرين ركبوا البحر فى رجب ووصلوافى الشهر نفسه إلى المكان الذى يريدونه على النيل، الذى ورد أنهم كانوا فيه بجوار النيل فى منازل إقامتهم.

ومن المعقول أنهم لم يقصدوا الحبشة المعروفة بحدودها الدولية الحالية إنما قصدوا مكانا قريبا لأرض الحجاز، حيث إننا نعرف أن المهاجرين ركبوا البحر فى رجب، ووصلوا فى الشهر نفسه إلى المكان الذى سيقيمون فيه بجوار النيل، وهو أرض السودان ومملكة علوة، والعاصمة "سوبا" عاصمة النجاشى. إذ لم يكن لدى المهاجرين المعذبين فى الأرض الوسائل التى تساعدهم على السفر الطويل الشاق المجهد وغير المأمون أيضًا.

خامسًا: أقام المهاجرون فى مملكة علوة فى أرض السودان، وفى عاصمة المملكة سوبا، وكان ملكها هو النجاشى أصحمة العادل، الذى استقر الملك فى يده بعد اضطرابات وثورات عدة، حيث انتصر على خصومه من أقاربه وأعدائه. وكان النجاشى يدين بالنصرانية؛ وأخيرا وبعد مضى وقت عاد الكثير من المهاجرين إلى الحجاز، ومكة والقليل منهم عاد إلى المدينة بعد أن فشا فيها الإسلام.

– ٤ –

هذه الحقائق كلها أكدها مؤلف كتاب "السودان دار الهجرتين" .. وقد نشرت صحيفة الشعب فى عدديها ١ و١١ من سبتمبر ١٩٩٨ خلاصات لهذا الكتاب القيم.

هذا ويعد الدكتور عبد الله الطيب الممهد الأول لهذا البحث والدكتور حسن الفاتح قريب الله المؤرخ التالى له الذى فصل الحديث فيه.

وبالله التوفيق.

غزوة بدر الخالدة

رمضان من السنة الثانية للهجرة

١ - سمع رسول الله بأبى سفيان مقبلا من الشام فى قوافل تجارة عظيمة لقريش فيها أموال لقريش، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش منهم: مخزمة بن نوفل، وعمرو بن العاص.

فندب رسول الله المسلمين إليهم، وقال: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها"[٣١].

فخرج المسلمون إليها، منهم من نهض، ومنهم من تعلل أو اعتذر أو ثقل، إذ كانوا لا يظنون أن الرسول يلقى حربا.

٢- كان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان، تخوفا على ما معه من أموال.

فبلغه أن الرسول قد ندب أصحابه للقائه هو ومن معه، فحذر عند ذلك واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة ليأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لتجارتهم هو وأصحابه.

٣- ورأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا، حدثت بها أخاها العباس، قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث فاجتمع إليه الناس، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيص، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت[٣٢] فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة[٣٣].

فقال لها العباس: اكتميها ولا تذكريها لأحد. ولكن العباس أخبر بها الوليد ابن عتبة بن ربيعة، وكان صديقا له فذكرها له، وطلب منه كتمانها. ولكن الوليد اذاع بها. ففشا الحديث بمكة. حتى تحدثت به قريش.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وأبو جهل في رهط من قريش قعود. يتحدثون برؤيا عاتكة. فلما رآني قال لي: يا أبا الفضل. إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا.

فلما أفرغت أقبلت حتى جلست معهم. فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية؟

فقلت: وما ذاك؟

قال: تلك الرؤيا التي رأتها عاتكة.

قلت: وما رأت.

قال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم فجحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئا .. ثم تفرقنا.

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني تقول: أغررتم لهذا الفاسق أن يقع في رجالكم ثم قد تتناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت.

قلت: وأيم الله لأتعرضن له إن عاد لأكفينكنه.

فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة. فدخلت المسجد. فرأيته. فأخذت أتعرضه ليعود لبعض ما قال، فخرج نحو باب المسجد يعدو، فإذا هو قد سمع صوت ضمضم الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي: يا معشر قريش. أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى إلا أن تدركوها. الغوث، الغوث، اللطيمة اللطيمة.

وتجهز الناس سراعا فكانوا بين رجلين: أما خارج، وأما باعث مكانه رجلا. ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أبو لهب. بعث مكانه العاصي ابن هشام ابن المغيرة.

٤- وخافت قريش كنانة، وكانت بينهم وبينها حرب، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا، فكاد ذلك يثنيهم، فجاءهم سراقة بن مالك، وكان من أشراف بنى كنانة.

فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

فخرجوا سراعا وخرج رسول الله يوم الإثنين لثمان ليال خلون من رمضان (عام ٢هـ).

وأناب رسول الله عنه على المدينة عمرو بن أم مكتوم ويقال: أبا لبابة ..

ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أمام رسول الله رايتان سوداوان: إحداهما مع على بن أبى طالب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وكانت إبل المسلمين سبعين بعيرا، وكانت راية الانصار مع سعد بن معاذ.

٥- سلك رسول الله من مكة إلى بدر، فمر بنقب المدينة، فالعقيق، ثم ذى الحليفة فأولات الجيش، ثم تربان، وملل، ثم غميس الحمام، فصخيرات اليمام، والسيالة، ففج الروحاء، ثم شنوكة، فعرق الطبية ثم سجسج وهى بئر الروحاء ثم المنصرف وحواليه ترك طريق مكة، وسار بيسار، فمر على النارية، فوحقان فمضيق الصفراء، وبعث ﷺ العيون تتجسس الأخبار عن أبى سفيان ومن معه. فسار بوادى ذفران، فنزل وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا غيرهم.

٦- واستشار رسول الله المسلمين وأخبرهم بخروج قريش.

فقام أبو بكر فقال وأحسن.

ثم قام عمر، فقال وأحسن.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (الآية ٢٤ من سورة المائدة) "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون" ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا وإنا معكما مقاتلون، فوالله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[٣٤] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله خيرا، ودعا له به.

ثم قال صلى الله علـه وسلم: أشيروا على أيها الناس، يريد الأنصار، وكان صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا بمن دهمه بالمدينة من عدوه، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا أوصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك بما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

فلما قال ذلك رسول الله قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.

قال: أجل.

قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت. فنحن معك، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته فخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسر رسول الله بقول سعد، وقال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

٧- ثم ارتحل رسول الله من ذفران، حتى نزل قريبا من بدر، وركب رسول الله هو وأبو بكر، حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد، وأصحابه وما بلغه عنهم.

فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما، فقال له رسول الله: إذا اخبرتنا أخبرناك.

قال الشيخ: بلغنى أن محمدا وأصحبه خرجوا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم القوم بمكان كذا وكذا، المكان الذى به قريش. ولما فرغ من خبره قال: من أنتما قال له ﷺ: نحن من ماء.

ثم رجع رسول الله إلى أصحابه، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، يلتسمون الخبر له عليه، فأصابوا راويتين

لقريش فأتوا بهما، وسألوهما ورسول الله قائم يصلي، فقالا: نحـن سقاة قريـش، بعثونا نسقيهم من الماء، وانتهى رسول الله من صلاته، فقال: أخبراني عن قريش، قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله: كم القوم؟قالا: كثير، قال:ما عددهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوما تسعا ويوم عشرا، قال رسول الله: القوم فيما بين التسعمائة والألف.

ثم قال ﷺ: فمن فيهم من أشراف قريش؟ .. فسميا له أشرافهم: عتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث وأبو جهل، وأمية بن خلف .. وغيرهم ..

فأقبل رسول الله على الناس، فقال: هذه مكة ألقت اليكم افلاذ[٣٥] كبدها.

٨- اما أبا سفيان وقافلته، فقد وصلا إلى قرب بدر، فأدرك أن رسول الله والمسلمين لهم بالمرصاد، وأخذ طريق الساحل، وترك بدرا بيسار، وانطلق يسرع حتى نجا هو ومن معه.

وأقبلت قريش فلما نزلوا الجحفة رأى جهم بن الصلت - فيما يرى النائم - أن رجلا قد أقبل، ثم قال: قتل عتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وفلان، ثم ضرب بسيفه في لبة بعيره وأرسله في العسكر، فما بقى خباء الا أصابه نضح من دمه وبلغ ذلك أبا جهل، فقال: وهذا أيضا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا.

وأرسل أبو سفيان إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليها ثلاثا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان[٣٦]، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فأمضوا.

وقال الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة وهم بالجحفة: يا بنى زهرة، قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخزمة بن نوفل[٣٧]، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بى جبنها، وارجعوا، فرجعوا، فلم يشهد أحد من زهرة بدرا، وكان أبو جهل فى أشراف قريش وبطونها إلا بنى عدى ابن كعب لم يخرج منهم أحد، فلم يشهد بدرا أحد من بنى زهرة ولا من بنى عدى بن كعب.

ورجع كذلك طالب بن أبي طالب، قال له بعض القرشيين: والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإن خرجتم معنا، أن هواكم لمع محمد، فرجع مع من رجع. ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى.

٩- ونزل رسول الله أدنى ماء من بدر، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح، يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله، ثم نغور[٣٨] ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم تقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله: لقد أشرت بالرأى. ونهض بمن معه من المسلمين، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه.

١٠- وقال سعد بن معاذ:

يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه، ونعد عنك ركائبك، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله خيرا، ودعا له بخير، ثم بنى لرسول الله عريش فكان فيه.

وقال رسول الله ﷺ: اللهم، هذه قريش قد أقبلت بخيلائه وفخرها، تحادك[٣٩] وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى.

وأخذ عقلاء قريش يخضعون قومهم على الانصراف، أتى حكيم بن حزام عتبة ابن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، أنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس، قال: أت أبا جهل، ثم قام عتبة خطيبا، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه

رجل يكره النظر إليه. قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك، وإن كان غير ذاك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

ثم جاء حكيم بن حزام إلى أبي جهل فقال له: يا أبا الحكم. إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره[40] حين رأى محمدا وأصحابه! كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

وبعث أبو جهل الى عامر بن الحضرمي. فقال: هذا حليفك - عتبة - يريد أن يرجع بالناس، فقم فأنشد خفرتك[41] ومقتل أخيك. فقام عامر فصرخ: واعمراه واعمراه.

فحميت الحرب، واشتد أمر الناس.

١١- وخرج الأسود بن عبد الأسود المخزومي، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فلما خرج برز إليه حمزة فضربه دون الحوض، فوقع على ظهره فحبا الأسود إلى الحوض، ليبر يمينه، فضربه حمزة فقتله في الحوض.

وخرج عتبة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة فخرج إليهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث: فقتلوا عتبة ومن معه.

ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، ورسول الله في العريش ومعه أبو بكر.

وعدل رسول الله صفوف أصحابه يوم بدر، ورجع إلى العريش، وأخذ يبتهل إلى الله ويقول فيما يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، وأبو بكر يقول: يا نبي الله، بعض مناشدتك لربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

وأصابت رسول الله سنة ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع - الغبار -.

وكان أول قتيل من المسلمين في بدر مهجع على مولى عمر بن الخطاب رمي بسهم فقتل وقتل كذلك منهم حارثة بن سراقة الأنصاري.

وخرج رسول الله إلى المسلمين فحرضهم، وهو يقـول: والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة، وفى يده ثمرات ياكلهن: بخ بخ. إنما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنـى هـؤلاء، ثم قـذف الثمرات مـن يـده وأخـذ سيفه، فقاتل المشركين حتى قتل.

وأخذ رسـول الله حفنـة مـن الحصباء، فاستقبل بها قريشا. ثم قـال: شـاهت الوجوه ثم نفحهم بها، وقال لاصحابه: شدوا، فكانت الهزيمة فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

وقال ابن عفراء وهـو عـوف بـن الحـارث لرسـول الله: ما يضحـك الـرب مـن عبده؟ قال: غمسه يده فى العدو حاسرا.

فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفا فقاتل حتى قتل.

وأخذ الصحابة يأسرون، ورسول الله فى العريش، وسـعد بـن معـاذ قـائم علـى بـاب العريـش الـذى فيه رسـول الله، متوشحـا السيف فـى نفـر مـن الأنصـار، يحرسـون رسول الله، يخافون عليه كرة العدو ورأى رسول الله الكراهية لما يصنع الناس، فـى وجه سـعد بـن معـاذ، فقـال لـه صلـوات الله عليـه، والله لكـأنك يـا سـعد تكـره مـا يصنـع القوم؟قال أجل والله يا رسـول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بـأهل الشـرك، فكـان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال.

وكانت معركة بدر صبيحـة يـوم الجمعـة لسبع عشرة خلـت مـن رمضـان، كمـا يقول ابن هشام، والصحيح أن يوم الجمعة يوافق التاسع عشر من رمضـان عـام ٢هـ – السادس عشر من مارس عام ٦٢٣م.

١٢– وقال رسول الله لأصحابه: إنى قد عرفت أن رجالا مـن بنـى هـاشم وغـيرهم قـد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكـم أحـدا منهم مـن بنـى هـاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البحترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس عـم رسـول الله فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها.

فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وأخواتنا وعشيرتنا ونترك العباس. والله لئن لقيته لألحمه السيف - وروى: لألجمنه.

فبلغ ذلك رسول الله - فقال لعمر: يا أبا حفص

قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله بأبي حفص.

فقال رسول الله له: أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟

قال عمر: دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

وكان أبو حذيقة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلتها يومئذ. ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدا.

وأبو البختري هو الذي قام في نقض الصحيفة مقاما كريما.

١٣- وعن عبد الرحمن بن عوف قال: كان امية بن خلف لي صديقا بمكة. وكان اسمي عبد عمرو، فتسميت في الإسلام ونحن بمكة: عبد الرحمن.

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، آخذ بيده، ومعي أدرع قد أخذتها غنيمة، فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: يا عبد عمر فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، قلت: نعم، قال: هل لك في خير لك من هذه الأدرع التي معك قلت: نعم، فطرحت الأدرع من يدي وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أمالكم حاجة في اللبن؟ أي إبل الفداء.

ثم خرجت أمشي بهما، فأنا بينه وبي ابنه، أخذ بأيديهما، فقال لي أمية: يا عبد الله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره، قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن بن عوف: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي. وكان هو الذي يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام. فلما رآه قال: رأس الكفر امية بن خلف لا نجوت إن نجا وأخذ يقول: لا نجوت إن نجا، لا يلتفت إلى كلامي. ثم صرخ باعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا فأحاطوا بنا، فضرب رجل ابنه، فوقع فصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، فقلت: انج بنفسك فوالله ما أغني عنك شيئا، فقطعوهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما.

وكان شعار أصحاب رسول الله يوم بدر: أحد، أحد، ونزلت الملائكة تأييدا، ولم تقاتل في يوم سوى بدر من الأيام.

وأمر رسول الله، بعد أن فرغ من المشركين - بأبي جهل أن يلتمس في القتلى، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل، فوجده بآخر رمق، فعرفه، فوضع رجله على عنقه، قال ابن مسعود: ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قلت: لله، ولرسوله ثم حززت رأسه، وجئت بها رسول الله، فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال: مقسما: آلله الذي لا إله غيره، قلت نعم، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله، فحمد الله.

١٤- وقاتل عكاشة الأسدي يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله فأعطاه سيفا، وقال له: قاتل بهذا يا عكاشة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وشهد به المشاهد مع رسول الله، وجاء عكاشة إلى مجلس رسول الله يوما فسمع الرسول يقول: يدخل الجنة سبعون من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، فقال عكاشة: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك عكاشة، وقتل عكاشة في حروب الردة وهو حليف بني عبد شمس ابن عبد مناف، وفيه قال رسول الله: منا خير فارس في العرب.

١٥- وأمر رسول الله بقتلى المشركين أن يطرحوا في القليب، ووقف عليهم رسول الله فقال:

يا أهل القليب

هل وجدتم ما وعدني ربي حقا!

فقال أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قوما موتى؟ فقال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

وسمع أصحاب رسول الله رسول الله يقول من جوف الليل:

يا أهل القليب

يا عتبة بن ربيعة

ويا شيبة بن ربيعة

ويا أمية بن خلف

ويا أبا جهل بن هشام

- وعدد صلى الله عليه من كان منهم فى القليب ..

هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟

فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا.

يا أهل القليب، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخر جتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس.

ولما أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله إلى وجه ابنه المسلم أبى حذيفة بن عتبة، فذا هو كئيب، فقال: يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء؟ فقال لا والله يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك.

١٦- وبعث رسول الله عبد الله بن رواحه بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسول الله وعلى المسلمين.

وبعث زيد بن حارثة إلى أهله السافلة وجاء الخبر وقد سوى المسلمون التراب على رقية بنت رسول الله وزوج عثمان بن عفان.

ثم أقبل رسول الله ومعه الأسارى من المشركين، إلى المدينة، وفيهم النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، ولما كان بالروحاء فى طريق عودته إلى المدينة لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه هو ومن معه من المسلمين.

ولما كان رسول الله فى "الصفراء" قتل على بن أبى طالب النضر ابن الحارث. وفى عرق الظبية، قتل عقبة بن أبى معيط، ولما أمر رسول الله بقتله قال: من للصبية يا محمد؟ قال: النار.

وقدم رسول الله المدينة قبل الأسرى بيوم، وفرق الأسرى بين أصحابه وقال : استوصوا بالأسارى خيرا.

١٧- وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان الخزاعى.

وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلما سمع مقتل أشراف قريش فى بدر، مات حزنا وجزعا، ووجد المسلمون فى مكة أنفسهم عزا وقوة.

وناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيشمت بكم محمد وأصحابه.

ثم بعثت قريش فى فداء الأسرى:

وقال عمر بن الخطاب لرسول الله: يا رسول الله، دعنى انزع ثنيتى سهيل ابن عمر فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا، فقال رسول الله: لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا، أنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه.

وكان حبس سهيل بن عمرو فى بيت رسول الله فى المدينة عند سودة بنت زمعة أم المؤمنين.

١٨- وكان فى الأسرى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى صهر الرسول وزوج ابنته زينب، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين: مالا وأمانة وتجارة، وكانت أمه هالة أخت خديجة، وخديجة خالته، تزوج زينب قبل البعثة، وكانت خديجة سألت رسول الله ذلك، إذ كانت تعده بمنزلة ولدها، فزوجه.

فلما أكرم الله رسول الله بنبوته آمنت به خديجة وبناته، وثبت أبو العاص على شركه.

وكان رسول الله زوج عتيبة بن أبى لهب بنته رقية أو أم كلثوم، فقالت قريش: أنكم قد فرغتم محمدا من همه، فردوا عليه بناته، فاشغلوه بهن، فمشوا إلى ابى العاص فقالوا له: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت، فرد عليهم: لا أفارق صاحبتى، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش، وكان رسول الله يثنى عليه فى صهره خيرا.

ثم مشوا إلى عتيبة. فقالوا له: طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة من قريش شئت. ففارقها وزوجوه بنت سعيد بن العاص. ولم يكن دخل بها فأخرجها الله من يده كرامة لها وهوانا له: وخلف عليها عثمان ابن عفان بعده.

وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله وبين أبى العاص ابن الربيع إلا أن رسول الله كان لا يقدر أن يفرق بينهما. فاقامت معه على اسلامها وهو على شركه. حتى كانت بدر، فلما سارت قريش إلى بدر سار معهم أبو العاص. فاسر. فكان بالمدينة عند رسول الله.

ولما بعث أهل مكة فى فداء الأثرى بعثت زينب بنت رسول الله فى فداء أبى العاص بمال. كان فيه قلادة لها كانت أمها خديجة قد ادخلتها بها على ابى العاص حين بنى عليها. فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتهم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا؟ فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها مالها. وأخذ رسول الله عليه عهدا أن يخلى سبيل زينب إليه. فلما خرج أبو العاص إلى مكة بعث رسول الله زيد بن حارثة ورجلا من الانصار فقال لهما: كونا ببطن ماجج - قريبا من التنعيم - حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تاتيان بها. وكان ذلك بعد بدر بشهر أو قريب منه، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بابيها. فتجهزت، وقدم لها أخو زوجها كنانة بعيرا فركبته، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارا يقود بها، وهى فى هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا فى طلبها، حتى أدركوها بذى طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود، فروعها برمحه، وهى فى هودجها وكانت حاملا، فطرحت جنينها، فقال أخو زوجها: والله لايدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما، فرجع الناس عنه.

وأتى أبو سفيان فى جلة من أشراف قريش. فقال: ايها الرجل. كف عن نبلك حتى نكلمك. فكف، فوقف عليه أبو سفيان. وقال له: إنك لم تصب خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد. فيظن الناس أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت. وأن ذلك منا ضعف ووهن ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بالمرأة. حتى اذا

هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سرا، وألحقها بأبيها ففعل. فأقامت ليالي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا، حتى أسلمها إلى زيد ابن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله.

وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله بالمدينة. حتى إذا كان عام ست من الهجرة خرج أبو العاص تاجرا مأمونا، وفي طريق عودته لقيته سرية لرسول الله، فأصابوا ما معه، وهرب قادما المدينة إلى رسول الله تحت جنح من الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله.

فلما خرج رسول الله إلى الصبح فكبر وكبر الناس، صرخت زينب ايها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس فقال أيها الناس: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم. ثم انصرف رسول الله، فقال: أي بنية، أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له.

وبعث رسول الله إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك. وإن أبيتم فهو في مال الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله، بل نرد عليه ماله، فردوه جميعه لا يفقد من من ماله شيئا.

ثم رحل إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه، قالوا: لا، فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وكان ذلك في رجب من عام ست من الهجرة قبل صلح الحديبية بخمسة شهور.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله، فرد عليه الرسول زينب بعد أربع سنين.

١٩- ومن رسول الله على بعض الأسرى بغير فداء، من مثل أبي العاص بن الربيع. وأبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي.

وأخذ الفداء من المشركين.

وكان فداء الرجل منهم أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم، إلا من لا شيء له، فمن رسول الله عليه، وكان فداء بعض الأسرى تعليم غشرة من صبيان المسلمين الكتابة.

٢٠- وكان عمير بن وهب الجمحي شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه غماء وهم بمكة، وكان ابنه وهب في أسارى بدر.

وجلس عمير في الحجر بعد بدر في يوم من الايام. فذكر مصاب اهل بدر من قريش.

فقال له صفوان والله ما في العيش بعدهم خير ..

فقال عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى اقتله "فإن لي قبلهم علة ابني أسير في أيديهم.

فاغتنمها صفوان، فقال:علي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا.

فقال عمير: فاكتم عني شأني وشأنك.

قال صفوان: أفعل.

ثم أمر عمير سيفه فشحذ له وسم، وانطلق حتى قدم به المدينة، فبينما عمر في جماعة من المسلمين يذكرون ما أكرمهم الله به إذ نظر فرأى عميرا قد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحا السيف. فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر. وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله، فقال يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه، قال: فأدخله علي، فاقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه، فلببه بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا فاجلسوا عند رسول الله، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه الرسول وعمر آخذ بحمالة سيفه في

عنقه. قال: أرسله يا عمر، أدن يا عمير فدنا. فقال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فاحسنوا فيه. قال: فما بال السيف فى عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف. وهل أغنت عنا شيئا.؟

قال الرسول: أصدقنى ما الذى جئت له؟

قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر. فذكرتما أصحاب القليب من قريش. ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى اقتل محمدا. فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له. والله حائل بينك وبين ما تريد.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله. قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى. وهذا أمر لم يحضره الا انا وصفوان. فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله. فالحمد لله الذى هدانى للإسلام. وساقنى هذا المساق. ثم شهد شهادة التوحيد والحق، فقال رسول الله: فقهوا أخاكم فى دينه واقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره، ففعلوا فقال: يا رسول الله، إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل. وأنا أحب أن تأذن لى حتى أقدم مكة، فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم فى د ينهم، كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم.

فأذن له رسول الله ولحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير يقول: أبشروا بواقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب، فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدا. ولا ينفعه بنفع أبدا.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام. ويؤذى من خالفه أذى شديدا، فأسلم على يديه ناس كثير.

٢١- وفى بدر نزلت سورة الأنفال المكرمة. وقد شهد المعركة ثلاثمائة واربعة عشر صحابيا[٤٢]، ومعهم فرسان وسبعون بعيرا. ومع المشركين مائة فرس وعددهم ثلاثة أمثال عدد المسلمين.

وشهداء بدر هم أربعة عشر شهيدا:

١- عبيدة بن الحارث المطلبي.

٢- عمير بن أبي وقاص الزهري، وأخوه سعد.

٣- صفوان القهري.

٤- عمير بن عبد عمرو الخزاعي.

٥- عمير بن الحام بن الجموع الأنصاري.

٦- معاذ بن عمرو بن الجموع السلمي.

٧- معاذ بن عفراء كما في سير أعلام النبلاء، وفي ابن هشام: معوذ.

٨- عوف، أخو معاذ بن عفراء.

٩- حارثة بن سراقة الانصاري.

١٠- يزيد بن الحارث.

١١- رافع بن المعلى.

١٢- سعدبن خيثمه الأوسي.

١٣- مبشر بن عبد المنذر.

١٤- عاقل بن البكير ..

أما قتلى المشركين فمنهم:

١، ٢- عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة.

٣- أبو جهل عمرو بن هشام.

٤، ٥- أمية بن خلف - وابنه على.

٦- عقبة بن أبي معيط.

٧- أبو البختري.

٨- العاص، أخو أبي جهل.

٩- حنظلة بن أبي سفيان، أخو معاوية.

١٠- عبيد بن أبي أحيحة.

١١- العاص أخو عبيد.

١٢- الحارث بن عامر النفوفلي.

١٣- طعيمة عم جبير بن مطعم.

١٤، ١٥، ١٦- حارث بن زمعة، وأبوه، وعمه عقيل.

١٧- نوفل بن خويلد الأسدى أخو خديجة.

١٨- إالنضر بن الحارث.

١٩- عمير بن عثمان، عم طلحة بن عبيد الله.

٢٠- مسعود المخزومي أخو أم سلمة.

٢١- أبو قيس، أخو خالد بن الوليد.

٢٢- قيس المخزومي.

٢٣، ٢٤- نبيه ومنبه ابنا الحجاج.

٢٥، ٢٦- حارثة والعاص ابنا منبه.

وقيل أن قتلى المشركين سبعون رجلا والأسرى من المشركين مثلهم[٤٣].

غزوة السويق

١ - فى ذى الحجة من العام الثانى للهجرة وبعد بدر غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق.

وقد كان أبو سفيان حين رجع إلى مكة، ورجعت قريش مهزومة من بدر نذر ألا يمس النساء حتى يغزو محمدا.

فخرج أبو سفيان فى مائتى راكب من قريش. وفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه.

وسار فى النجدية. حتى نزل صدر قناة، إلى جبل يقال له ثيب على مسافة من المدينة.

ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير فى جنح الليل .. فأتى حيى ابن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه خوفا وفرقا. فانصرف عنه إلى سلام ابن مسلم، وكان سيد بنى النضير فى زمانه، وفى أيديه ما لهم فاستأذن فأذن له، فسقاه وقراه[٤٤] وأعلمه بأدق أسرار المسلمين والرسول.

وخرج أبو سفيان فأتى أصحابه. وبعث رجالا منهم الى المدينة. فأتوا ناحية منها يقال لها العريض، فحرقوا النخيل فيها، وقتلوا رجلا من الانصار وحليفا له. ثم انصرفوا راجعين.

٢- وعلم المسلمون فى المدينة بالأمر، فأخذوا عدتهم.

وخرج رسول الله بهم فى طلب أبى سفيان ومن معه، وسار حتى بلغ قرقرة الكدر ثم عاد راجعا بعد أن هرب أبو سفيان وقومه.

واستعمل الرسول على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر.

وسميت هذه غزوة السويق، وبلغ فيها الرسول قرقرة الكدر وشاهد ازوادا من أزواد قريش قد طرحوها فى الحرث، تخففا وطلبا للنجاة والهرب، وكان أكثر ما طرحت قريش من الازواد هو السويق[٤٥]، فأخذ المسلمون منه الكثير.

ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة السويق.

حصار رسول الله لبني قينقاع

١- جمع رسول الله اليهود بسوق بني قينقاع، وقال فيهم:

يا معشر يهود .. احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل .. تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.

فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله، وحاربوا فيما بين بدر وأحد.

٢- وكان السبب في ذلك أن امرأة عربية قدمت بأشياء لها إلى سوق بني قينقاع فباعتها، وجلست إلى صائغ يهودي فيها، فأخذ يزيدها على كشف وجهها فأبت، فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها، فضحك هو ومن معه بها، فصاحت فوثب مسلم على الصائغ فقتله، وأخذ اليهود يسبون المسلمين ورسول الله ويتناولونهم بالأذى.

فحاصرهم رسول الله خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، وكانوا حلفاء الخزرج، فقام عبد الله بن أبي بن سلول فقال: يا محمد، أحسن في موالي فسكت رسول الله،فكرر عبد الله كلامه، فأعرض عنه رسول الله فأدخل يده في جيب درع رسول الله، فغضب الرسول وقال:أرسلني، ويحك أرسلني.

قال عبد الله: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر - مقاتل لا درع له - وثلاثمائة دارع - لابس الدرع - قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة.

ومشى عبادة بن الصامت، أحد بني عوف، وكان بنو قينقاع حلفاء كذلك لقومه فخلعهم إلى رسول الله، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، قائلا: أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

هذا وقد كانت غزوة بني قينقاع بعد بدر، كما كانت غزوة بني النضير بعد أحد، وغزوة بني قريظة بعد الخندق.

مقتل كعب بن الأشرف

فى السنة الثانية

١ - بعد هزيمة بدر وصل النبا إلى المدينة على ايدى زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة. بالفتح وبمقتل أشراف قريش.

فملك الحقد قلب كعب بن الأشرف، وأخذ يهذى ويقول: هولاء اشراف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ثم خرج كعب إلى مكة. فجعل يحرض على رسول الله، وينشد القصائد يبكى فيها قتلى قريش فى بدر. ومن شعره:

قتلت سراة الناس حول حياطهم   لا تبعدوا إن الملوك تصرع

وعاد كعب إلى المدينة ليشبب بنساء المسلمين

فقال رسول الله لأصحابه: من لى بابن الأشرف؟

فأجاب محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله، أنا أقتله.

فقال صلى الله عليه وسلم: فافعل.

فعاد محمد بن مسلمة[٤٦] إلى منزله، فجلس ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا القليل الأقل.

وانضم إلى محمد بن مسلمة: سلكان بن سلامة، وهو أخو كعب من الرضاعة ومعهما عباد بن بشر: والحارث بن أوس، ومشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال:انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم.

أرسلوا جميعا سلكان إلى كعب، فتحدث معه ساعة وناشد الشعر، ثم قال ويحك ابن الأشرف، جئتك لحاجة أريد ذكرها لك، فاكتم عنى .. قال: أفعل قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءا، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل، حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا.

فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الامر سيصير إلى ما أقول.

فقال سلكان: قد أردت أن تبيعنا طعاما وترهنك ونوثق لك، ونحن فى ذلك

فقال كعب: أترهنونى أبناءكم؟

قال سلكان: لقد أردت أن تفضحنا. أن معي أصحابا لي على مثل رأيي أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الدروع ما فيه وفاء. وأراد سلكان أن لا ينكر كعب السلاح والدروع إذا جاءوا بها، فقال: أن في الدروع لوفاء.

ورجع سلكان إلى أصحابه، وأخبرهم، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إلى كعب، وأقبلوا في ليلة مقمرة حتى انتهوا إلى حصنه. فهتف به سلكان. وكان كعب حديث عهد بعرس. فنزل ففتح لهم، وتحدث معهم.

قال لهم كعب: أترهنوني نساءكم؟، قالوا: نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم؟

قال: أترهنوني أبناءكم؟

قالوا: أ أردت أن تفضحنا.

ثم تحدث معهم، وتحدثوا معه، وقالوا له: هل لك يا ابن الأشرف أن تسير إلى شعب العجوز، فنتحدث بقية ليلتنا هذه؟ قال لهم: إن شئتم.

فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم أدخل سلكان يده في شعر رأسه ثم شم يده، وقال: ما رأيت كالليلة، طيبا أعطر قط، ثم مشى ساعة. ثم عاد لمثلها. حتى اطمأن، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها، فأخذ برأسه وقال: اضربوا عدو الله، فضربوه بسيوفهم فلم تغن شيئا. وصاح كعب صيحة أيقظت أهل الحصون من حولهم. فأخذ سلكان سكينا فغرزها في بطنه فوقع عدو الله.

وخرجنا، فجئنا رسول الله وهو قائم يصلي آخر الليل، فسلمنا عليه. فأخبرناه بقتل عدو الله، ورجعنا إلى أهلنا .. وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الاول من السنة الثالثة. فأصبحنا وقد خافت اليهود، فليس بالمدينة يهودي إلا وهو يخاف على نفسه.

٣- وقال رسول الله: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه. فقتل بعض المسلمين عددا من اليهود الذين أخذوا يتآمرون على الإسلام، وعلى رسول الله.

غزوة أحد

وهى فى شوال من السنة الثالثة للهجرة

١ - لما أصيب يوم بدر من كفار قريش، من أصيب، ورجع المهزومون منهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بتجارة قريش سار جماعة من القرشيين، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان وأصحاب التجارة، وقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا .. ففعلوا.

فأجمعت قريش لحرب رسول الله، وللأخذ بالثأر. وأخذ أبو عزة عمرو ابن عبد الله الجمحى يحرض كنانة وقبائل تهامة على حرب رسول الله، وكان قد أسر يوم بدر، فقال: يا رسول الله، إنى فقير ذو عيال وحاجة، فامنن علىّ، فمنّ عليه رسول الله .. فاجتمع إليه فى مكة صفوان بن أمية، فقال له: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، فاخرج معنا، فقال: إن محمدا قد مَنّ على فلا أريد أن أظاهر عليه، قال: أعنا بنفسك، ولك والله على إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى، ويصيبهم ما أصابهن من عسر ويسر .. فأجابه أبو عزة، وجعل يطوف فى تهامة، ويدعو بنى كنانة وخرج كذلك مساقع الجمحى إلى بنى كنانة يحرضهم على رسول الله.

٢- وجاء يوم المعركة التى أرادتها قريش، وصنعتها للانتقام.

فخرجت قريش بحدها وجدها، ومعها أحابيشها وحلفاؤها، وأخذوا النساء معهم التماسا للحفيظة، ومنعا من الفرار.

وخرج أبو سفيان بهند بنت عتبة، وخرج عكرمة ابن أبى جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث ابن هشام ابن المغيرة بفاطمة بنت لوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة الثقفية وخرج عمرو بن العاص بربطة بنت منبه بن الحجاج وخرج الكثير ومع كل منهم امرأته.

وسار جيش قريش إلى المدينة حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة، وذلك يوم الخميس السادس من شوال فى السنة الثالثة للهجرة.

فجمع رسول الله أصحابه واستشارهم، قال لهم: "إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها.

وكان رأى عبد الله بن أبى بن سلول مع رأى رسول الله .. ولكن أصحاب رسول الله، أو الكثير منهم، ممن لم يشهدوا بدرا قالوا: يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لألا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا.

فقال ابن سلول: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

فلم يزل الناس برسول الله حتى دخل، فلبس لامته، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله، ولم يكن لنا ذلك، وقالوا لرسول الله: يا رسول الله، استكرهناك، ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله: ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل:

وخرج رسول الله فى ألف من أصحابه، والمشركون فى ثلاثة آلاف فيهم مائتا فرس وسبعمائة محارب مسلح، وذلك بعد عام كامل من غزوة بدر، وكان خروج رسول الله يوم الجمعة السابع من شوال من السنة الثالثة للهجرة، وفى جيش رسول الله فارسان اثنان، ومائة محارب مسلح واستعمل رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم، وفى الطريق بين المدينة وأحد جمع ابن سلول اليهودى أنصاره وعاد بهم إلى المدينة وهو يتعلل ويقول: "أطاع أصحابى وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟" وحاول عبد الله بن عمرو بن حرام أن يرده هو ومن معه إلى أرض المعركة فأبى عبد الله بن أبى بن سلول، وقال لهم ابن حرام: يا قوم: "اذكركم الله

ألا تخذلوا قومكم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما اسلمناكم. ولما استعصوا عليه. قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عز وجل نبيه عنكم.

وقال الأنصار لرسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود. قال: لا حاجة لنا فيهم. وظهر من اليهود الغدر وسوء القصد، من مثل مربع بن قيظي وغيره.

ومضى رسول الله حتى نزل للشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد. وقال لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال ..

واستعد رسول الله للقتال. وهي في سبعمائة رجل. وأمر على الرماة عبد الله ابن جبير. وكان عدد الرماة خمسين رجلا، وقال له: انضح الخيل عنا بالنبل. لا ياتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتينَ من قبلك.

ولبس رسول الله درعين، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير. ولم يشترك في المعركة زيد بن ثابت، ولا عبد الله بن عمر، ولا البراء بن عازب. كانوا أبناء خمس عشرة سنة.

وكان على ميمنة المشركين خالد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل.

وقال رسول الله: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال، فأبى صلى الله عليه وسلم دفعه إليهم، حتى قام أبو دجانة: قال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب بعد العدو وحتى ينحني، فقال أبو دجانة: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، فأخذه وعصب رأسه بعصابته، وجعل يتبختر بين الصفين. وقال رسول الله حين رآه كذلك: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن[٤٧].

٣- وخيانة ابن سلول في أحد يقابلها صنيع يهودي آخر، هو أبو عامر، عبد عمرو ابن صيفي بن مالك بن النعمان من بني ضبيعة، كان بعد الهجرة قد أبغض الإقامة في المدينة، لمكان الإسلام والمسلمين والرسول فيها فخرج إلى مكة مباعدا لرسول الله، ومعه خمسون شابا من الأوس، وأخذ يحرض على رسول الله، ويقول لقريش: إن حربا لو قامت، لكان اهل المدينة من الأوس مع قريش، فسوف يخرجون جميعا من صفوف محمد إلى صفوف قريش، ولن يبقى مع محمد أحد منهم.

فلما شبت معركة أحد كان أبو عامر أول من برز لهم ومعه الأحابيش وعبدان أهل مكة، فأخذ ينادي: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، فردوا عليه: لا أنعم الله بك عينا فاسق، وكان في الجاهلية يسمى الراهب فسماه رسول الله الفاسق، فلما سمع ردهم، قال: لقد أصاب قومي بعدي شر .. وأخذ يقاتلهم قتالا شديدا، ويرميهم بالحجارة.

٤- وكان لأبي سفيان في التحريض على القتال مواقف مشهورة، قال لأصحاب لواء المشركين، من بني عبد الدار: يا بني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا في بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفوا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم غدا إذا التقينا، كيف نصنع، وذلك هو ما أراده أبو سفيان، وكان اللواء في يدى أبي سعد بن أبي طلحة، ثم في يدى عثمان بن أبي طلحة.

وقامت الحرب، وكان القتال شديدا حامي الوطيس، وكان للقلة من أصحاب رسول الله، مواقف مشهودة، ومن بينهم أبو دجانة سماك بن خرشة يروى الزبير بن العوام فيقول: وجدت نفسي، حين سألت رسول الله السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته من قريش وقد قمت فسألته إياه قبله، فأعطاه لأبي دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع، فأتبعته، فوجدته قد أخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت له إذا تعصب بها: فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا أجهز عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة .. فحمى نفسه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد رفع سيفه على مفرق رأس هند بنت عتبة وكانت مع المشركين تحرض على رسول الله، ثم عدل أبو دجانة السيف عنها. قال الزبير فقلت: والله ورسوله أعلم[٤٨].

ومن ذى المواقف المشهورة حمزة. وكان وحشى قاتل حمزة عبدا لجبير ابن مطعم. وكان عم جبير - وهو طعيمة بن عدى - قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال له سيده جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت حر. وكان وحشى كالحبشيين يجيد القذف بالحربة، وقلما يخطئ به شيئا .. وجاء حمزة فى أحد يتقدم الصفوف. ويقتل فى المشركين فأخذ وحشى حربته. وهزها حتى إذا رضى عنها قذفه بها فقتله، فلما مات تقدم فأخذ حربته، وخرج إلى صفوف المشركين.

ومنهم أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية. وقد عاشت الى عهد عمر[٤٩]

ومن ذوى المواقف المشهورة مصعب بن عمير، قاتل دون رسول الله حتى قتل وقاتله هو ابن قميئة وكان يظن أنه رسول الله، فرجع إلى قريش وهو يقول قتلت محمدا، وكان مصعب حامل لواء رسول الله، فلما قتل أعطى رسول الله اللواء لعلى بن أبى طالب.

ومنهم كذلك على وغيره من الصحابة، وقال أبو سفيان بن حرب من قصيدة مشهورة له:

فسلى الذى قد كان فى النفس أننى
قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما[٥٠] ومصعبا
وكان لدى الهيجاء غير هبوب
ولو أننى لم أشف نفسى منهم
لكانت شجا فى القلب ذات ندوب

ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فهزموا المشركين هزيمة منكرة. وشمرت نساء قريش وفى مقدمتهن هند بنت عتبة. هاربات.

٥- وفى لحظة ترك الرماة أماكنهم، واشتغلوا بالغنائم، وكشفوا ظهور المسلمين للخيل، فأبى المسلمون من خلفهم، وصرخ صارخ: ألا إن محمد قد قتل وتشابك الجيشان. وقتل صاحب لواء المشركين[٥١]. فجاءت عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش، واجتمعوا حوله .. وكسرت رباعية النبى اليمنى السفلى وجرحت

شفته السفلى[٥٢] يوم أحد، وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم ووقع رسول الله فى حفرة من الحفر التى عملها أبو عامر اليهودى ليقع فيها المسلمون وهم يعلمون، فأخذ على بيد رسول الله، ورفعه طليحة حتى استوى قائما، ومص مالك سنان الدم عن وجه رسول الله، فقال ﷺ: "من مص دمه دمى لم تصبه النار". ونزع أبو عبيدة إحدى الحلقتين من وجه رسول الله فسقطت ثنيته الأخرى، فكان ساقط الثنيتين.

وقال رسول الله حين غشيه القوم: هل من رجل يشرى لنا نفسه؟ فقام خمسة من الأنصار، منهم زياد بن السكن، فقاتلوا وقاتلوا دون رسول الله رجلا ثم رجلا، وكان منهم أم عمارة التى قامت تباشر القتال، وتذب عن رسول الله بالسيف، وترمى عن القوس، وجاء ابن قمیئة يقول دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا، فاعترضت طريقه أم عمارة ومصعب بن عمير، ووقف أبو دجانة دون رسول الله، يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه، ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله، وكان صلى الله عليه وسلم: يناوله النبل وهو يقول: ارم فداك أبى وأمى".

وانتهى أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - إلى عمر وطلحة بن عبيد الله ورجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيديهم، قال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله؟ ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة وأصيب عبد الرحمن بن عوف وجرح عشرين جرحا، وكان أول من عرف رسول الله بعد الهزيمة وقول الناس: قتل رسول الله: هو كعب بن مالك، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله، فأشار إليه رسول الله أن أنصت.

فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، معه: أبو بكر، وعمر، وطلحة، والزبير، ورهط من المسلمين.

وجاء أبى بن خلف، وهو يقول: أين محمدا؟ لا نجوت إن نجا، ولما دنا من رسول الله تناول الرسول حربة، فطعنه بها فى عنقه طعنة قتلته، وكان أبى، هذا يلقى

الرسول بمكة فيقول له يا محمد، إن عندي فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة[٥٣] أقتلك عليه، فيقول له رسول الله: بل أنا أقتلك إن شاء الله وغسل على الدم عن وجه رسول الله، والرسول يقول: اشتد غضب على من دمى وجه نبيه.

٦- وجاءت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين، واتخذت هند من أذان المسلمين وأنوفهم خلاخيل وقلائد، وأعطت حليها لوحشي وبقرت بطن حمزة، فأخرجت كبده، وجعلت تمضغها، فلم تستطع أن تستسيغها وأخذت ترتجز الشعر وترد عليها هند بنت اثاثه بن عباد بن عبد المطلب.

ومر سيد الأحابيش الحليمى بن زيان بأبى سفيان، وهو يضرب فى شق حمزة، برمحه، ويقول: ذق يا عقق أى يا عاق، فقال الحليمى: يا بنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون فقال: اكتمها عنى فإنها كانت زلة.

وصلى رسول الله الظهر يوم أحد قاعدا، وصلى المسلمون خلفه قعودا.

وخرجت قريش من أرض المعركة، تريد العودة، فأشرف أبو سفيان على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أعلى هبل، يوم بيوم بدر، فقال رسول الله: قم يا عمر، فأجبه، فقل: الله أعلى وأجل، لا سواه، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار، فقال أبو سفيان: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله لعمر: ائته فانظر شأنه، فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدا؟ قال عمر: اللهم لا، وأنه ليسمع كلامك الآن قال أبو سفيان: أنت أصدق عندى من ابن قمينة وأبرأ.

ثم نادى أبو سفيان: قد كان فى قتلاكم مثل، والله ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت.

وانصرف أبو سفيان، ومن معه وهو يقول: أن موعدكم بدر العام القابل. فقال، رسول الله لرجل من أصحابه: "قل له نعم، هو بيننا وبينك موعد".

وفرغ المسلمون لقتلاهم، وقال رسول الله: من رجل ينظر إلى ما فعل سعد ابن الربيع، أفى الأحياء هو أم فى الأموات؟ فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد، فنظر، فوجده جريحا وبه رمق، فقال: أبلغ رسول الله

عنى السلام، وقل له: أن سعد بن الربيع يقول لك جزاك عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك عنى السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطوف، ثم لم يبرح حتى مات.

٨- وخرج رسول الله يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه، فقال: لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصيل الطير، ولئن أظهر الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم، وقال المسلمون: لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم، وقال رسول الله حين وقف على حمزة: أن أصاب بمثلك أبدا، ثم قال: جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع، حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وكان رسول الله وحمزة وأبو سلمة إخوة من الرضاعة، أرضعتهم مولاة لأبى لهب - اسمها ثويبة - ونزل قوله تعالى: "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به" (١٢٦ الحج).

وأمر رسول الله بحمزة فسجى ببرده، ثم صلى عليه، فكبر سبع تكبيرات ثم أتى بالقتلى يوضعون إلى جانب حمزة، فصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة.

وأقبلت صفية لتنظر إلى أخيها حمزة، فقال رسول الله لابنها الزبير: القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أم: إن رسول الله يأمرك أن ترجعى فقالت: ولم وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فجاء الزبير، فأخبر رسول الله بذلك، فقال: خل سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله فدفن.

٩- وانصرف رسول الله راجعا إلى المدينة، فلقيته جمنة بنت جحشى، فلما لقيت الناس نعى لها أخوها عبد الله فاسترجعت فاستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب فصاحت وولولت، فقال رسول الله: إن زوج المرأة منها لبمكان.

وسمعت امرأة من بنى دينا أن زوجها وأخاها وأباها قد أصيبوا فى أحد، فقالت: فما فعل رسول الله، قالوا: خيرا، وبحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل يا رسول: أى صغيرة.

غزوة بنى قريظة

اليهود مهما تعددت شيعهم، وتنوعت قبائلهم. هم ملة واحدة فى سياساتهم الكيدية للإسلام والمسلمين، فلذا من الصعوبة بمكان التفريق والفصل بين الأسباب التى أدت إلى غزوهم واستئصال شافتهم، فيهود بنى قريظة والمصطلق وإن تأخر تعرض سيف المسلمين لرقابهم بعد رصفائهم يهود بنى النضير، إلا أن ذلك لا يعنى مبررا لتميزهم عنهم فى شيء، فلقدظل اليهود جميعا بكل أرجاء المدينة، وما حولها يكيدون للإسلام والمسلمين ولا يفترون، فكانوا أشد ضررا على الإسلام من مشركى مكة الوثنيين.

فى اليوم الذى رجع فيه رسول الله (ﷺ) إلى المدينة من الخندق فى (غزوة الأحزاب) جاءه جبريل عليه السلام بينما كان قد طرح عنه سلاحه فقال له: "أو قد وضعت السلاح؟! فإن الملائكة لم تضع أسلحتها وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة، فإنى سائر أمامك أزلزل حصونهم، وأقذف فى قلوبهم الرعب، فسار جبريل فى موكبه من الملائكة".

أسباب الغزوة:

كان السبب المباشر لغضب الله تعالى والملائكة والناس أجمعين، على بنى قريظة، هو نقضهم الميثاق المؤكد بينهم، وبين المسلمين فى وقت كان المسلمون فيه أحوج ما يكونون إلى حماية ظهورهم بهم من مشركى الأحزاب. مما أوقع الجيش المسلم، ومن بالمدينة من نسائهم وذرياتهم فى أحرج المواقف التى استدعت تدخل القدرة الإلهية لكشف الغمة - كما أسلفنا - فيما عدا ذلك، فإن يهود بنى قريظة كيهود لم يكفوا يوما عن محاولاتهم الغادرة بالمسلمين متى ما حانت الفرصة، فلذا كان غزوهم هو السبيل الوحيد لتأمين الدعوة الإسلامية وتخليصها من شرورهم.

أحداث الغزوة:

أمر رسول الله (ﷺ) مؤذنا فى الناس من كان سامعًا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة. استعجالا لهم على السير إليهم وتقدمه بالراية على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) حتى دنا من حصونهم. ونهض المسلمون خلف رسولهم. وتحركوا إلى ديار بنى قريظة فى ثلاثة آلاف حتى حاصروها وشددوا عليها الحصار. فلم يمض وقت طويل حتى استسلمت بنو قريظة ونزلوا عن حصونهم المنيعة على حكم رسول الله (ﷺ).

العاقبـــة:

كان فى إمكان بنى قريظة مقاومة الحصار أطول مدة بما لديهم من مون وذخيرة ونسبة لما عليه المسلمون من النصب، والحرج، ولكن الله (تعالى) ألقى فى قلوبهم الرعب والخوف، فتزلزلت بهم حصونهم حتى لفظتهم مستسلمين إلى رسول الله (ﷺ) فحكم فيهم سعد بن معاذ، الذى حكم بضرب أعناق الرجال. وسبى النساء والذرارى فكان حكمه هذا كما قال رسول الله (ﷺ) مخاطبا له:

لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .. وهكذا: تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة الذين نقضوا الميثاق وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين فى أحرج ساعة، فكانوا بعملهم هذا مجرمى حرب يستحقون الإعدام.

ثمامة بن أثال

كان ثمامة بن أثال الحنفى، سيد أهل اليمامة، فى طريقه إلى المدينة يريد اغتيال الرسول - ﷺ - فأخذته سرية يقودها محمد بن مسلمة وجاءت به إليه، فقال عليه الصلاة والسلام "أحسنوا إساره" فربط بسارية من سوارى المسجد. وأمر له بناقة يأتيه لبنها صباحا ومساء. ثم جاء إليه الرسول - ﷺ - فقال: "مالك يا ثمامة هل أمكن الله منك؟". فقال: "يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكر. وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت". وفى اليوم الثالث أطلق سراحه وعفا عنه. فانطلق ثمامة إلى ماء قريب فاغتسل وطهر ثيابه، ثم دخل إلى المسجد فقال: "يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها، وما كان من دين أبغض إلى من دينك، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلى، وما كان من بلد أبغض إلى من بلدك، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى "ثم شهد شهادة الحق وأسلم، وبعدها استأذن رسول الله فى العمرة فأذن له.

عندما وصل ثمامة إلى مكة وعلمت قريش بإسلامه قالوا له: "صبأت يا ثمامة" قال: بل أسلمت وتبعت دين محمد "وهموا بقتله، ولكنهم خافوا قومه لأن تموينهم من القمح كان من اليمامة، فقال لهم ثمامة: "والله لن تصل إليكم حبة من حنطة اليمن إلا بإذن رسول الله، فلما عاد إلى اليمامة منع القمح عن مكة حتى جاءت قريش، فبعثت إلى رسول الله تسأله بالله والرحم أن يكفيها أمر ثمامة، فكتب رسول الله إلى ثمامة أن يكف عنها".

تحول القبلة من بيت المقدس
إلى البيت الحرام

يروى البخارى بسنده عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهر وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت فنزلت آيات تحويل القبلة إلى البيت الحرام وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى - ﷺ - قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول إلى قبلة البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول منهم فأنزل الله "وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤف رحيم".

خطب رسول الله الناس وأعلمهم بذلك وكان أول صلاة صلاها صلاة العصر وفى هذا يقول الله تعالى: "قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون".

حائل تستظل بظل الإسلام

حـائل وآل حـاتم الطـائي .. يتطلعـون إلى الديـن الجديـد، والرسـالة المحمدية، وإلى انتصاراتها الخالدة بعيون الخوف ..

وتوالت انتصارات الإسلام: بدر، خيبر، فتح مكة، حنين، يوما بعد يوم، وعاما إثر عام، وطيىء على ما هي عليه من ضلالها وبهتانها، وعدى على ما انطوت عليه نفسه من كراهية للإسلام، وحقد على الرسول.

وأخذ عدى بن حاتم الطائي سيد حائل يفكر في الأمر مليا: جيوش محمد في كل مكان، رايات المسلمين تخفق فوق كل بقعة، انتصارات جنود محمد من حوله تدوى ذكرها أرض العرب وقبائلهم، والأمم من حولهم كأنها الشمس لا تخفى في أي مكان.

- إن محمدا لن يتركنا.

- وإن جيوشه لابد أن تقدم علينا في يوم قريب.

- لقد هدم المسلمون الأصنام في كل مكان، فهل يبقون على أصنام طيىء وحدها؟ لا لن يكون ذلك.

بهذا كان عدى يحدث نفسه.

وأخذ يفكر في الأمر: ماذا لو انقض المسلمون على بلادنا هنا؟ وما يكون المصير؟ أنا الذى سوف يجئ عليه الدور في يوم من الأيام.

وقال عدى لغلام له، كان راعيا لإبله: أعدد لى إبلا صعابا شدادا، تكون قريبا منى أبدا،وعلى استعداد للسير في أي وقت!..

فإذا سمعت بجيش لمحمد قدم إلى بلادنا، فأنبئني على عجل ولا تتوان في إعلامي بذلك.

ونفذ غلامه كل ما أمر به .. وأخذ ينتظر قدوم خيول المسلمين وجيوشهم. إن قدمت إلى بلاد حائل. في يوم من الأيام. ليخبر بذلك مولاه وليبلغه أول شيء بالنبأ. لعله يجد من الخطب مخلصا.

ولم تلبث الأحداث أن صدقت ظنون عدى، فها هو ذا على بن أبي طالب يخرج من المدينة في كتيبة من كتائب الإسلام، فيها مائة وخمسون مجاهدا: مائة منهم على مائة بعير، وخمسون على خمسين فرسا، يتقدمهم على، ومعه راية سوداء ولواء أبيض.

والكتيبة سائرة مجدة في طريقها إلى بلاد حائل، لتهدم بيت أصنامها الاكبر. الذى بنته طيىء، واتجهت إليه تعبده من دون الله.

وفي سحر يوم من الأيام، جاء غلام عدى إليه، يقول له:

يا عدى: ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد. فاصنعه الآن، فاني قد رأيت رايات! .. فسألت عنها .. فقالوا: هذه جيوش محمد.

فقال له عدى: قرب إلى إبلى.

فقربها الغلام .. فركب عدى هو وأهله وولده، وما خف من ماله وسار بها في الصحراء، وقال: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام.

وأعجلته المفاجأة عن أن يأخذ أختا له معه.

وشنت كتيبة المسلمين الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر. فهدموا بيت أصنامهم وأخذوا من الغنائم والأسرى ما أخذوا .. وفي الأسرى أخت عدى .. وكان عدى قد نجا بنفسه وأهله وولده.

وسار عدى إلى الشام، عن طريق الجوشية وهي موضع بين نجد والشام. ونجا بنفسه من القتل أو الأسر. أو هكذا كان يتصور أنه نجا بنفسه ..

وأقام في الشام في بلاد الغساسنة، مع أهل دينه، ولكنه عاش ذليلا حيران نادما على ما فرط في جنب الله.

وعادت خيول المسلمين وفرسانهم بالنصر والغنائم والأسرى. ومعهم ثلاثة أسياف كانت في خزائن عدى، وكذلك ثلاثة أدرع له، وعلى الأسرى: أبو قتادة.

وعلى الأبل عبد الله بن عتيك، وقسم على الغنائم فى الطريق، وعزل نصيب رسول الله.

ولم يقسم الأسرى من آل حاتم، حتى قدم بهم المدينة.

ودخل الجيش الظافر المدينة. وبلغ على رسول الله بالنصر والبشرى فوضعت الأسرى من النساء فى بيت تجاه باب المسجد، كانت توضع فيه السبايا.

وسار رسول الله إلى السبايا. يرى ويسمع ما يكون من مظلمة لهن .. ومعه على بن أبى طالب.

فمر رسول الله، باخت عدى، فقامت إليه. كانت امرأة جزلة. فقالت يا رسول الله. هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن على .. من الله عليك .. فقال لها صلوات الله عليه: ومن وافدك؟

قالت: عدى بن حاتم.

قال لها صلوات الله عليه: الفار من الله ورسوله.

فسكتت ابنة حاتم .. ومضى رسول الله فى طريقه وتركها.

وفى الغد ذهب رسول الله إلى هؤلاء الأسيرات، يرى ويسمع - أيضا - مظالمهن .. ومعه على.

فنهضت أخت عدى، فقالت له ما قالته بالأمس!..

وقال لها رسول الله مثل ما قاله بالأمس ومضى وتركها!..

وفى اليوم التالى ذهب كذلك رسول الله بنفسه إليهم، فسار وخلفه على. فمر بها، وقد يئست منه، فصمتت ..

فأشار إليها على: أن قومى فكلمى رسول الله.

فقامت إليه. فقالت: يا رسول الله: هلك الوالد، وغاب الوافد.فامنن على. من الله عليك.

فرد عليها رسول الله فى صوت جليل. كان له رنة البشرى فى نفس هذه المرأة الذليلة: "قد فعلت، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك. ثم آذنينى .."..

فأقامت أخت عدي على وعد كريم، وأمل جد عظيم، وهي تقول لنفسها:

أي ملاك كريم هذا الرجل؟ وأي إنسان عظيم - قد أشربت نفسه الإنسانية في أرفع قيمها - هذا الإنسان؟

وجاء إلى المدينة ركب من التجار من بلي أو قضاعة. فعزمت في نفسها أن تخرج إلى أخيها ببلاد الشام.

فجاءت إلى رسول الله، فقالت: يا رسول الله: قد قدم رهط من قومي. لي فيهم ثقة وبلاغ.

فكساها رسول الله، وأعطاها نفقة، ووهبها راحلة تركبها.

وخرجت ابنة حاتم معهم، حتى قدمت على أخيها في الشام.

وفوجئ عدي بابل تؤمه، وعلى إحداها أخته تنزل من هودجها فإذا هي هي.

ونزلت أخت عدي لتقول له في شخط شديد، وغضب قوي، وعتاب مرير. وهي توجه كلامها إليه:

القاطع، الظالم! احتملت بأهلك وولدك، ورحلت بهم، وتركتني: تركت بقية والدك، عورتك وعرضك.

فلم يجد عدي ما يرد به على أخته، إلا أن قال لها: أي أخت: ظني بي خيرا، ولا تقولي إلا خيرا، فوالله مالي من عذر، لقد صنعت كل ما ذكرت.

واغرورقت عيناه بالدموع، ونزلت أخته لتجد ما هو فيه من هوان وذلة. بعد العز المكين، والشرف الكبير، فصمتت وتركت بقية للوم في طوايا نفسها.

وأقام عدي وأقامت أخته معه، وقصت عليه ما لقيته من محمد وأصحابه من كرم ونبل وخير.

وفي يوم من الأيام، أخذ عدي يستشير أخته، وكانت امرأة حازمة. ذات عقل رصين. فقال لها: أي أختي: ماذا تري في أمر هذا الرجل؟

فردت عليه: يا عدي! أرى والله أن تلحق له سريعا:

فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله.

وإن يكن ملكا فلن تذل في عز اليمن - وقبيلة طيىء يمنية من كهلان على ما نعلم - واستوسلت اخت عدى تقول له: وأنت أنت.

ورد عليها عدى: والله وإن هذا لرأى، وإنى لأرجو أن يجعل الله يده في يدى.

وخرج عدى في أهله وولده، وبقية ماله، حتى قدم المدينة سائرا مغذا. يقصد رسول الله .. وأناخ برواحله أمام المسجد النبوى .. ودخل على رسول الله وهو في مسجده جالس بين أصحابه.

ها هو ذا عدى يقف بين يدى رسول الله، يردد: يا محمد.

فيرد عليه الرسول: من الرجل؟

فيعود الجواب إلى رسول الله: عدى بن حاتم.

ويكرم رسول الله عديا .. ويقوم إليه يصافحه ..

وينطلق به إلى بيته .. ويقول:

يا عدى: جئت بغير أمان ولا كتاب.

وفي الطريق، طريق الرسول إلى بيته: ومعه ضيفه عدى بن حاتم، تلقاه امرأة كبيرة ضعيفة .. فتستوقف رسول الله، فيقف لها طويلا، تكلمه في حاجتها، ويستمع إليها ويطيل الاستماع.

ويتعجب عدى، ويقول في نفسه: والله ما هذا بملك!

ويمضى رسول الله بضيفه عدى، حتى يدخل به بيته .. ويتناول وسادة من أدم محشوة ليفا، فيرمى بها إلى عدى، قائلا له: اجلس على هذه.

ويرد عدى، بل أنت فاجلس عليها.

فيقول له الرسول: بل أنت!..

فيجلس عدى عليها!.. ويجلس رسول الله بالأرض!..

ويمضى عجب عدى من أمر محمد إلى غايته!..

ويقول في نفسه.

والله ما هذا بأمر ملك.

ثم التفت اليه رسول الله وقال:

"يا عدى: هل تعلم من إله سوى الله؟"

فأجاب عدى: لا: يا رسول الله.

وعاد الرسول صلوات الله عليه، يقول له:

يا عدى: "هل تعلم شيئا أكبر من الله؟"

ويجيب عدى رسول الله ﷺ: أن: لا.

ويعود رسول الله، صلى الله عليه وسلم "إلى الحديث:

"يا عدى: إن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضالون!.."

ويسكت عدى.

ويعود الرسول، ﷺ، إلى الحديث:

"يا عدى، أسلم، تسلم .."

ويقول عدى لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه: إن لى دينا.

ويقول له رسول الله فى حلم وأناة: "أنا أعلم بدينك منك. ألست ترأس قومك؟"

ويقول عدى: بلى.

ويقول الرسول: ألست تأكل المرباع؟" ويقول عدى: بلى؟

وفى رواية أخرى أن رسول الله قال له:

"ايه يا عدى بن حاتم! ألم تكن ركوسيا"؟

ويرد عدى: بلى

فقال له رسول الله: "أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع؟"

ويرد عدى: بلى.

قال له رسول الله: "فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك؟"

قال عدى: أجل والله!.. وملكه العجب، وقال فى نفسه:

والله ما هو بملك. إن هو إلا نبى مرسل.

ويتلفت إليه الرسول فيقول له: "يا عدى: أسلم، تسلم..

لعلك إنما يمنعك من دخول هذا الدين: ما ترى من حاجتهم!

فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه!..

ولعلك - يا عدى - إنما يمنعك من دخول فيه، ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم! .. فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها، حتى تزور هذا البيت لا تخاف!..

ولعلك - يا عدى - إنما يمنعك من دخول فيه: إنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم! .. وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل، قد فتحت عليهم[٥٤]!.

وأخذ عدى يقول في نفسه: يا الله، ماذا أسمع؟ ما هذا الصوت الجليل الذي يردد: يا عدى، يا عدى، يا عدى! كيف يصنع محمد بي كل ما يصنع يكرم أختي وأنا عدوه، ويكرمني وأنا خصم له، ويرحب بي في بيته، وهنا نطق بشهادة الإسلام، واستظل بظل الرسالة المحمدية.

سفارات إلى مصر فى العهد النبوى

مصر دائمًا محل نظر الرواد وصانعي الحضارة، وهـي دائما فـي مقدمة الأحداث والتطورات والانتقالات التاريخية .. إليها وفد الكثير من الأنبياء: ابراهيم موسى، عيسى، عليهم الصلاة والسلام، وإليها تطلع أبطال التاريخ وشعوب العالم الإسكندر الأكبر، الفرس، الروم، وغيرهم ...، ونحو أرضها ونيلها سار المفكرون والعلماء والأدباء والشعراء، في مختلف عصور التاريخ.

وكانت مصر دائمًا في فكر رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام. ففي السنة السادسة، سنة الدعوة العالمية للهجرة العالمية إلى دين الله، وبعد صلح الحديبية عام ٦٢٨م - السنة السادسة للهجرة النبوية - بعث رسول الله، صلوات الله عليه، الصحابى الجليل، حاطب بن أبى بلتعة، فى وفد من المسلمين، برسالة إلى المقوقس. الحاكم الرومانى فى مصر، وكان يحكمها من أوائل حكم هرقل فى بيزنطية حتى فتح مصر، أى من عام ٦١٠م حتى عام ٦٤٢م، والإسكندرية آنذاك هى العاصمة، وكان هذا البطريك المسيحي من أذكى الحكام الرومانيين، وأكثرهم دهاء وخبرة سياسية. وكانت الدولة الرومانية الشرقية تشهد فى هذه الفترة تحولات كبيرة فى تاريخها. الانتصارات الفارسية، على جيوش الروم بلغت الذروة، وهرقل يتولى عرش الامبراطورية فى السنة التى بعث فيها رسول الله برسالته، وهزمت الروم هزائم ساحقة عام ٦١٦م وفقدت امبراطوريتها على أيدى الفرس، وعاد هرقل يرتب لمعارك جديدة، انتصر فيها عام ٦٢٤م، فى السنة الثانية للهجرة واقتحم الجيش الرومانى بلاد فارس بعد غزوة بدر بقليل.

وفى يوم من أيام العام السادس للهجرة دخل حاجب المقوقس عليه ليخبره أن سفيرا من نبى العرب بالباب يحمل رسالة من الرسول الكريم، فأذن له، ودخل حاطب ومن معه، وألقوا على المقوقس تحية الإسلام، وجلسوا وقدم حاطب إلى المقوقس رسالة صغيرة فى مبناها كبيرة فى فحواها، تقول الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد، عبد الله ورسوله، إلى المقوقس، عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون".

وختمت الرسالة بهذا التوقيع الجليل: محمد رسول الله.

وذهل المقوقس، ممثل الامبراطورية الرومانية في مصر، والذي يعيش بين حامية عسكرية، تقدر بمائة ألف، إلى أسطول بحري جرار .. ذهل لما يقرأ، ولكنه كان سياسيا حكيما داهية، وكانت الأحداث من حوله تحتم عليه أن يطأطئ الرأس أمام هذه الرسالة الجليلة، وقال المقوقس لحاطب: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيا. قال حاطب: نبي، إنه رسول الله، قال المقوقس: فما له لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلدته؟ قال حاطب: وعيسى بن مريم أتشهد أنه رسول الله؟ فما له لم يدع على قومه حيث أرادوا صلبه حتى رفعه الله إليه؟ فقال المقوقس: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم (١: ٣٦٢ أسد الغابة لابن الأثير) ..

وكتب المقوقس رسالة إلى رسول الله، رد بها عليه ردا جميلا، وبعث معه بهدايا مشهورة، وعاش حاطب حتى توفي عام ٣٠هـ وهو يذكر دائما هذه السفارة.

وفي العام الثامن للهجرة، أي بعد هذه السفارة بعامين، وأثناء حصار رسول الله صلوات الله عليه للطائف (٨هـ - ٦٣٠م) بعد فتح مكة وغزوة حنين رأت ثقيف، هذه القبيلة العربية الحاكمة في الطائف ضعف موقفها العسكري وهي محاصرة بجيش المسلمين، فبعثت بوفد إلى المقوقس، لتستنصر به في حربها مع رسول الله، قيل: إن المغيرة يوفد إلى المقوقس، لتستنصر به في حربها مع رسول الله، قيل: إن المغيرة بن شعبة الثقفي كان على رأس هذا الوفد (٣: ٤٥٢ الإصابة لابن حجر)، والمغيرة أحد دهاة العرب، وكان يتردد على مصر قبل ظهور الإسلام وفي تاريخ الإسلام للذهبي (٢: ٢٤٧) عن المغيرة قال: كنا قوما متمسكين بديننا، ونحن سدنة اللات، فأجمع نفر من بني مالك، الوفود على المقوقس، وإهداء الهدايا له، فازمعت

الخروج معهم، حتى دخلنا الإسكندرية فإذا المقوقس فى مجلس على البحر. فركبت زورقا، حتى حاذيت مجلسه، فنظر إلى فأنكرني، وأمر بمن عنى، فأخبرته بأمرنا وقدومنا، فأمر أن ننزل الكنيسة، وأجرى علينا ضيافة، وسر بالهدايا وأعطانا الجوائز.

وفى حسن المحاضرة للسيوطى والإصابة لابن حجر أن وفد ثقيف دخلوا على المقوقس، فسألهم: كيف خلصتم إلى، ومحمد وأصحابه بينى وبينكم؟ قالوا: لحقنا بالبحر، قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد. قال: فكيف لاقاه من خالفه فى مواطن (أى حروب ومعارك) كثيرة - قال: وإلى ماذا يدعو؟ قالوا: إلى أن نعبد الله وحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعونا إلى الصلاة والزكاة ويأمرنا بصلة الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا والرباء والخمر .. فقال المقوقس: هذا نبى مرسل إلى الناس كافة ولو أصاب القبط والروم لاتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى، وهذا الذى تصفونه منه بعث به الأنبياء من قبله وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه، فقالوا له: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا معه (أى فى دينه)، فقال المقوقس: أنتم وما تحبون، ماذا فعلت يهود يثرب؟ قالوا: هم قوم أولو حسد، أما أنهم يعرفون من أمره مثلما نعرف (٥٣١ و٥٣٦: ٣ الإصابة فى ترجمة المقوقس).

وهكذا مضت أيام الوفد فى الإسكندرية، دون أن يحقق ثمرة..

وفتحت الطائف، وعلم رسول الله بقصة الوفد ومحاورته مع المقوقس، فنظر إلى السماء .. النصر دائما من الله وأغنى النصر العظيم فى الطائف رسول الله عن أن يبعث بسفارة جديدة إلى المقوقس ..

وختم العهد النبوى بوفاة رسول الله (ص) عام ٦٣٢م وفى عهد أبى بكر وعمر يظهر سفير آخر كان هو السفير بين الخلافة الإسلامية فى المدينة وبين المقوقس، وهو كعب بن عدى التنوخى، حيث اختاره الخليفتان أبو بكر وعمر سفيرهما إلى الإسكندرية وحاكمها الكبير .. وذلك موضع حديث آخر بإذن الله.

الرسالة النبوية

إلى امبراطورية الروم هرقل

- ١ -

هرقل (هيركيوليس - هيراكليس) ينتصر على كسرى فارس انتصارا ساحقا. يسترد به البلاد التى أخذتها منه فارس؛ ويسير هرقل بعد الفتح فى طريقه إلى بيت المقدس عام ٧هـ - ٦٢٩م حتى يبلغ حمص: وفى هذه الايام الحافلة بعث رسول الله - ص - برسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الدخول فى دين الله. وكان دحية بن خليفة الكلبى هو الذى حمل رسالة النبى الكريم إلى إمبراطور الروم هرقل، وأسلم دحية الرسالة إلى عامل الإمبراطورية على الشام فى بصرى فى رواية، فبعث بها العامل إلى هرقل فى حمص؛ وفى رواية أخرى أن دحية قدم إليه الكتاب بنفسه، وفى رواية ثالثة أن الرسالة قدمت إليه فى بيت المقدس نفسه.

وقرئت الرسالة على هرقل مترجمة، ونصها: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم - سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام؛ أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - أى عامة طبقات الشعب - ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) - الطبرى ٢١٩/٢.

رسالة جليلة حمل فيها رسول الله هذا الإنسان الكبير - مسئوليته، تجاه نفسه وشعبه والإنسانية عامة. ولم يسجل المؤرخون الرومان رد فعل الإمبراطور على الرسالة الكريمة، والمصادر العربية تذكر أنه رد عليها ردا حسنا.

وكانت تلك الرسالة أول لقاء سياسى بين الإسلام وإمبراطورية الروم القوية الواسعة الأرجاء آنذاك.

إن من هذه الرسالة النبوية ثلاث نسخ خطية.

الأولى: وثيقة محفوظة فى صندوق ذهبى فى متحف طوب كاى سراى باستانبول.

الثانية: وثيقة دخلت فى ملك وزير خارجية لبنان الأسبق الهاوى للآثار النادرة د/هنرى فرعون حيث اشتراها من هاو لبنانى بأكثر من مليون دولار.

ولم يؤكد الفحص العلمى صحة نسبة هاتين الوثيقتين إلى عصر الرسالة المحمدية.

الثالثة: محفوظة اليوم فى قصر رئيس دولة الإمارات العربية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وهى الوثيقة الحقيقية التى أكد البحث العلمى صحتها وأنها هى التى تسلمها: هرقل من مبعوث الرسول الأكرم دحية الكلبى، حيث ظلت متوارثة فى أسرة هرقل، وكان منهم حكام فى الأندلس، وكان آخر العهد بها وبوجودها فى ملك أمير طليطلة (العاصمة الأندلسية القديمة) (الأذفونش).

ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، إلى أن ظهرت فى حوزة الأمير (الملك) عبد الله ملك الأردن، وأوصى بها زوجته الملكة "نهجة" بعد وفاته. ولما توفى الملك عبد الله حفظتها زوجته فى إحدى الخزائن فى بنوك سويسرا، وحين احتاجت إلى المال سحبتها من الخزينة بنفسها وعرضتها للبيع فى لندن.

وأخذ الخبراء فى فحصها فحصا علميا دقيقا، حتى لا تكون هناك شبهة من أى نوع فى أنها الوثيقة التاريخية الصحيحة، التى لم يشبها تزوير بأى لون من الألوان واستغرقت عملية الفحص هذه عاما كاملا بمعرفة خبراء من العلماء الإسلاميين والأوربيين، منهم:

- العالم الهندى محمد حميد الله الأستاذ بالسوربون.
- والدكتور هنرى فرعون.
- والمؤرخ د/ عز الدين إبراهيم.
- وخبراء متحف "طوب كاى سراى".

وجرى الفحص الميكروسكوبى بالاشعة فوق البنفسجية وبواسطة الإمكانات المتاحة لدى المتحف البريطاني بلندن. ومختبرات جامعة ليدز البريطانية.

وكانت النتيجة ترجيح صحة هده الوثيقة ونسبتها الى الرسول الاعظم. باعتبارها الرسالة الحقيقية التى سلمت إلى هرقل من مبعوث الرسول الكريم: وخلصت أعمال الفحص الى النتائج التالية:

١ - الرسالة صحيحة. أو هى على الأقل نسخة صحيحة من الاصل. حيث كانت الرسائل النبوية يحتفظ بنسخ منها فى ديوان الخليفة عمر بن الخطاب.

٢- عمر الرسالة يزيد على ألف عام، وهو أقصى مدى يمكن للمعامل الحديثة الوصول لمعرفته.

- ٣ -

وأخيرا وفى عام ١٩٧٥م اشترى هذه الوثيقة - المكتوبة على جلد غزال. والمؤلفة من ثمانية سطور - الشيخ زايد بن سلطان أمير دولة الإمارات وحاكم أبو ظبى بمبلغ اثنين ونصف مليون دولار، لتستقر فى المركز الثقافى الجديد. الذى أقامه فى قصره.

وبحفظ الله العلى العظيم، استقرت هذه الوثيقة الصحيحة فى خزينة أمير عربى مسلم، بعد عمر طويل بلغ مداه ١٣٧٠ عاما ميلاديا أو ١٤١٢ عاما هجريا. لتذكر المسلمين بعظمة دينهم ورسولهم الصادق الأمين، صلى الله عليه وسلم الى يوم الدين،

مـلاحظـة:

وردت كلمة الأريسيين فى مؤلف تراثى قديم للراهب إثناسيوس عضو مجمع نيقية (٣٢٥م). وعنوانه الرد على الأريوسيين". وهذا المؤلف هو الركيزة لكل ما كتبه جميع اللاهوتيين.

المفكرون فى الغرب يشهدون بأن الإسلام هو رسالة السماء.

ومن هذا الوميض يشتعل الوقود من كتاب (عبادة الابطال والبطولة فى التاريخ) للكاتب الإنجليزى توماس كاريلى

ويقول جوته الفيلسوف الألمانى:

"إذا كان هذا هو الإسلام، ألسنا جميعا نعيش فى الإسلام".

وفى كتاب بونابرت والإسلام يقول نابليون بونابرت:

"لقد أرسل موسى إلى قومه هاديا إلى الله، وأرسل عيسى المسيح إلى العالم الرومانى، وأرسل محمد إلى اليابسة القديمة .."

"وكانت الجزيرة العربية وثنية بعد المسيح بستة قرون، إلى أن جاء محمد بالدعوة إلى عباده رب إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى وكان الآريون وبعض المذاهب الأخرى قد أخرجوا الشرق عن هدوئه بإثارة التساؤل عن طبيعة الاب والابن وروح القدس. فقام محمد بدعو ته إلى لا إله إلا الله. وأن الله واحد لا والد له ولا ولد وأن التثليث هو الذى أدى إلى عبادة الأصنام"

"وآمل أن لا يمضى الوقت طويل حتى أستطيع أن أجمع العقلاء والمثقفين من جميع الأقطار لتقيم نظاما موحدا مبنيا على أسس القرآن لأنها هى وحدها الحق وهى وحدها التى تهدى إلى سعادة البشرية".

ويقول. الفيلسوف البريطانى برتراند راسل:

"إن اطلاقنا اسم (العصور المظلمة) لتشمل الفترة التى قبل عصر النهضة لدليل على أننا نحصر اهتمامنا فى غرب أوروبا، دون وجه حق، فمن الهند إلى أسبانيا كانت حضارة الإسلام مزدهرة حينئذ، وما كانت تفتقده البلاد المسيحية فى ذلك الحين لم تفتقده المدينة العامة، ولكن هذه نظرة ضيقة. بل الامر على النقيض تماما أن مدينة غرب أوروبا هى المدينة ولكن هذه نظرة ضيقة."

ويقول الأديب الإنجليزى الشهير برنارد شو:

"إننى أكن كل تقدير لدين محمد لحيويته العجيبة، فهو الدين الوحيد الذى يبدو لى أن له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة، وهو صالح لجميع العصور. لقد درست حياة هذا الرجل العجيب وفى رأيى أنه يجب أن يسمى منقذ البشرية دون أن يكون فى ذلك عداء للمسيح وإنى أعتقد أنه لو أتيح لرجل مثله أن يتولى بمفرده حكم هذا العالم الحديث لحالفه التوفيق فى حل جميع مشكلاته بأسلوب يؤدى إلى السلام والسعادة التى يفتقر العالم إليها كثيرا.

وأستطيع أن أتنبأ بأن العقيدة التى جاء بها محمد ستلقى قبولا حسنا فى أوروبا فى الغد، وقد بدأت تجد آذانا صاغية فى أوروبا اليوم".

وليس لدى مسلم ريب فى أن رسالة محمد رسالة سماوية، وأن القرآن كتاب الله الذى نزل به الوحى من السماء على رسول الله، وأن رسالة الإسلام رسالة إلى بنى الإنسانية جميعا فى كل مكان وكل زمان "تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا". - ١ من سورة الفرقان.

صدق الله العظيم

النبى الإنسان

سبحانك اللهم وتعاليت فيما قدرت وفيما اخترت .. اصطفيت رسولك محمدا لأداء رسالتك فما كان اصطفاؤك إياه لهذا الأمر العظيم إلا لأنه كفء له وكفء عظيم، إن "محمدا" كان بشخصيته وبخصائصه مددا للإيمان. ومنارا يرفع الغشاوات ويكشف الحجب.

أينبعث النور من مصباح أقتم أغبر؟

كانت حياة الرسول قبل مبعثه حياة تكمن فيها خصائص النبوة وتتمثل أخلاق الرسالة فلم يكن بعد أن بعث رسولا إلى الناس شخصا جديدا فى الأخلاق والسلوك والأهداف ولو جاز لنا أن نستشف معالم الإسلام قبل الدعوة المحمدية إليه لترامت لنا هذه المعالم من خلال حياة "محمد" قبل الإسلام إن الله إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .. فلا غرور أن يكون "محمد" هو الأفق الرفيع الذى صاغته يد العناية الإلهية لكى يشرق من جانبه كوكب الدين باهراللآلئ.

شخصية محمد ترجمة حية لكتاب الله إذا قرأت، طالعتك الصحائف الغر من حياة الرسول ومن ميزاته وكأنما شاء الله أن يسوق لنا منهج الدين فى كتابه. وأن يتبعه تطبيقا عمليا ونموذجا بشريا فى حياة "محمد" وفيما أثر عنه من ألوان التصرفات فى شتى شؤون الحياة كان محمد رجل دنيا ودين .. أحب الطيبات من متاع العيش، وسعى الأخيار بوسائل الأخيار لأنه كان يرى الله فى كل ما يعمل، مقيما ضميره مقام الرقيب الساهر، وذلك هو جوهر الإسلام الدين الخالص ذلك هو الإسلام.

يهيب بك الإسلام أن تستمتع بدنياك طولا وعرضا ما طاب لك. ويدفع بك إلى الضرب فى مناكب الأرض استخلاصا لما على ظهرها وما فى باطنها من كل شىء. فلتفعل ما تهفو إليه نفسك من مأكل ومشرب وملبس. ولتلتمس كل ملذة من

وجهها المشروع. لا حرج عليك ولا تثريب، ما دام ذلك منك في غير عدوان ولا سرف

كان "محمد" إنسانا قبل أن يكون نبيا فلما أظلته نبوته لم تبرحه إنسانيته. بل لقد زكت وتوهجت. وبقي إنسانا في جوانب حياته، تتصل أرومته بأرض البشر. وتسمو روحه إلى الملأ الأعلى.

خالط "محمد" عشيرته، ودامج بيئته، فكان منها، كما كن لها تؤخذ عليه جفوة، وإن كانت قد عرفت فيه زعيم انقلاب يكافح الغي ويعلي كلمة الحق. أحب محمد وأبغض. وأثاب وعاقب. وعامل الناس كما يجب أن يعاملوا. لا رحمة في غير مرحم، ولا قسوة إلا حين تقضيها حكمة.

وهكذا عاش "محمد" في دنياه فردا لا شذوذ ولا أنفصام.

جوانب من عظمة الرسول

فوق مقاييس العظمة كانت عظمة محمد بن عبد الله وفوق مقاييس التاريخ كانت هذه العزة، وهذه الهالة وهذا المد الكبير يحيط بمحمد بن عبد الله من كل جانب صلوات الله عليه، ثلاثة عشر عاما قضاها فى مكة داعيا إلى الله لم تلن له قناة المشركين ولم تهتز له قلوب الجاحدين، ولكنه فى هذه المدة الطويلة ربى جيلا وخرج أبطالا وأنشأ عقولا وقلوبا ونفوسا تعرف معنى العزة ومعنى العبودية لله ومعنى التضحية فى سبيل الله وفى المدينة كانت عبقريته وعظمته تبدو فى كل حركة وكل عمل فمن نصر إلى نصر، ومن توفيق إلى توفيق. ومن عمل فى سبيل الله إلى عمل أكبر وأعظم يعز به دين الله ورسالته، كل ذلك وعبقرية الوحى وجلال الرسالة وعظمة النبوة تبدو فى كل عمل وكل صغيرة وكبيرة يعملها رسول الله ﷺ .

عن السيرة والقدوة والأسوة فهى فوق كل عظمة كان صلوات الله وسلامه عليه مثلا أعلى للداعية الذى يدعو إلى الله على بصيرة كان يألف قلوب الأعداء من حوله من اليهود يحيطون به من كل جانب يدبرون له المؤامرات، مع قريش ومع بعض القبائل العربية وتتحاكم قريش مع اليهود أينا على الحق وأينا على الباطل، فيقول اليهود للمشركين بل أنتم على الحق، ومحمد وصحبه على الباطل. وتعس اليهود وتعس ما قالوا.

كذلك كان أبو عامر الراهب يذهب إلى قريش ويحرضهم على حرب محمد.

كان قبل بدر يذهب إلى مكة خفية ويقول لهم لا تتركوا هذا الرجل وإلا قطع رزقكم وقطع معيشتكم، وفى أحد كان وراء هذه الغزوة التى أرادت قريش بها أن تجتث الإسلام من مكة. وفى الأحزاب كان أبو عامر يصنع المؤامرات ويدس الدسائس ويقول لقريش إن هى إلا لحظة ونجد الأوس قد خرجت على محمد وتآمرت عليه وتركت صفوفه وجاءت إليكم، ولكن الله أخزاه وأذله حتى سماه رسول

الله الفاسق لا الراهب. ولما نصر الله الإسلام فى الأحزاب ذهب إلى مكة فأقام مع القريشيين يحرضهم على رسول الله.

فلما فتح الله مكة على محمد صلوات الله عليه وسلامه هرب إلى الطائف. وبعد الطائف هرب إلى الغساسنة يعيش بينهم ويحرضهم على غزو المدينة لاجتثاث الإسلام والمسلمين منها ولكن الله أذله وأذل من يتآمر معه على حرب الإسلام.

كان محمد ﷺ فى السلم والحرب فى كل عمل وكل فكر وكل حرب وكل معركة المثل الكامل للإنسانية كلها، كان النصر حليفه لأنه كان مع الله كان ﷺ يعطف على اليهودى وعلى الذمى وعلى النصرانى ولا يعامل أحدا بقسوة حتى حبب الإسلام إلى كل إنسان فى المدينة.

وحمل أصحابه الرسالة إلى كل مكان، وحتى جاءته اللحظة الأخيرة وذهب إلى ربه راضيا مرضيا فترك بلال المدينة وأقسم ألا يؤذن بعد رسول الله ﷺ وذهب إلى الشام فلما فتح عمر الشام طلب بلالا ليؤذن له مرة فقال له يا أمير المؤمنين إنى قد أقسمت أن لا أؤذن بعد رسول الله، ولكن إجلالا لمقامك عند الله سوف أصنعها مرة واحدة، فأذن بلال فبكى عمر، وبكيت الصحابة وذكروا رسول الله ﷺ وذكروا مؤذنه بلالا هذا الصحابى العظيم ولم يستطع أن يكمل الآذان كذلك كان بلال الذى كان أول داعية لرسول الله وأول مؤذن له.

الرسول والزهد فى الدنيا

عاش رسول الله حياته عابدا ساجدا حامدا زاهدا فى الدنيا. لا يتطلع إلى متاعها ولا يحلم بشىء من زينتها. ولا يرنو بصره إلى ما متع الله به الأغنياء من نعيمها. ولقد توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: ما شبع رسول الله ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله (أى رحل عن الدنيا) وفى رواية أخرى عنها (ما شبع رسول الله من خبز بر - أى قمح - حتى لقى الله عز وجل).

وفى حديث عمرو بن الحرث: ما ترك رسول الله إلا سلاحه وبغلته وارضه جعلها صدقه: وتقول عائشة أم المؤمنين "مات رسول الله وما فى بيتى شىء يأكله حى إلا شطرة شعير "وقال لى أيضا - الرواية أيضا على لسان عائشة - أنى أعرض على أن تجعل لى بطحاء مكة ذهبا. فقلت لا يارب، أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك. وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك، وعند عبد الرحمن بن عوف مات رسول ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير.

وعن عائشة قالت: كنا - آل محمد - نمكث شهرا ما نوقد نارا - أى للطبخ. إن هوالا التمر والماء وتقول عائشة: كان قريش رسول الله الذى ينام عليه فى بيته حصيرا خشنا، ودخل عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبى فرآه يضجع على حصير خشن ترك أثاره على جنبه فبكى عمر فقال له الرسول ما يبكيك؟ قال: أرى كسرى وقيصر على الحرير والاستبرق، وأراك على هذ الحصير. فغضب الرسول وقال أتريدها قصروية يا عمر، وطالما كان رسول الله يردد فى دعائه الكريم العظيم اللهم أحينىمسكينا، وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين. ويقول الرسول: "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم" وتقول عائشة: لم يمتلى جوف النبى شبعا قط. ولم يبث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وإن كان ليظل جائعا يلتوى

طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكى له رحمة مما أرى به، وأمسح بيدى على بطنه مما به من الجوع وأقول: نفسى لك فداء لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك فيقول: يا عائشة مالي والدنيا، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم فأكرم مأواهم وأجزل ثوابهم فأجدنى استحيى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غدا دونهم وما من شىء هو أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى، وتقول عائشة فما أقام رسول الله بعد ذلك إلا شهرا حتى توفى وكان رسول الله يقول لأصحابه إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها يقول رسول الله اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة "وعن ابن عمر: أخذ رسول الله بمنكبى فقال: كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" أى لا تركن إليها، ولا تتخذها وطن، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا تتعلق فيها إلا بما يتعلق به الغريب فى وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله.

ويقول رسول الله "مالي والدنيا، ما أنا فى الدنيا .. إلا كراكب. استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.

صلى الله على محمد وآله، فلقد ترك لنا مثلا عالية، ونماذج حية، هى حلم الإنسانية فى مسيرتها الدائبة إلى الخير والحق والعدل والرحمة والسلام.

حرس رسول الله

- ١ -

نزلت الرسالة المحمدية وجاء الوحى بكتاب الله العظيم وبلغه جبريل لرسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وأدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأعلن الوحى، وتلا على الناس وعلى قريش كتاب الله فى محافلهم وأنديتهم وفى كل مكان يجتمعون فيه، ويلتقون عنده، وردد الرسول الأعظم آيات الوحى السماوى الكريم "قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا" (الأعراف ١٥٨).

"يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا". (٤٥، ٤٦، ٤٧ الأحزاب).

شاهدا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، ومبشرا لأهل طاعته، ونذيرا لأهل معصيته، وداعيا إلى الله أى إلى التوحيد وطاعته وعبادته، وسراجا منيرا أى يهتدى به إلى الحق.

"وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا" (سبأ ٢٨).

"إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده" (١٦٣ النساء).

واستمعت قريش إلى أنباء الرسالة، وخبر الوحى، فكذبت ولجت فى التكذيب، وعاندت وطغت وأسرفت فى العناد والطغيان، ومضى رسول الله فى طريقه فى تبليغ الرسالة والدعوة إلى الدين، وقريش ماضية فى طريقها سادرة فلا خيلائها، وفى غرورها وشركها وفى اضطهادها لكل من دخل فى دين الله.

وتفاقمت مؤامرات قريش على رسول الله وعند كل عمل. ولدى كل قول. وحين يتم نصر أى نصر لرسول الله ولدين الله ..

ترتفع كفة المؤامرات، وتزيد حدة وعنفا ..

وحيال ذلك كله كان لابد من حرس يحرس رسول الله.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص لأبيه:

ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله فيما كانوا يظهرون من عداوته؟

قال عمرو بن العاص لابنه:

لقد حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله، فقالوا:

ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر رسول مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل - يريدون محمد صلوات الله وسلامه عليه - وقد سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه. فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت. فلما مر بهم في طوافه المرة الثانية غمزوه مثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ثم مضى.

فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ثم قال:

(أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح)، أي تماديتم في كفركم ومؤامرتكم، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم تحربضا عليه، ليسكنه بأحسن ما يجد من القول، ويقول له انصرف يا أبا القاسم والله ما كنت جهولا.

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا - أي عمرو بن العاص - معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم ما تكرهون تركتموه.

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به، يقولون:

أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقوله رسول الله من عيب آلهتهم ودينهم فيرد عليهم رسول الله:

نعم أنا الذى أقول ذلك:

فرأيت رجلا منهم أخذ بمجمع رداء رسول الله، يكاد يخنقه فقام ابو بكر دونه وهو يبكى، ويقول:

ربى الله.

فانصرفوا عن رسول الله.

قال عمرو بن العاص لابنه:

فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا من رسول الله قط. وتتابعت مواقف الدعوة وتبليغ الرسالة فى مكة ثم فى المدينة وكثرت الصفوف التى تعادى رسول الله وكثرت مؤامرتهم على النبى - عليه الصلاة والسلام - ودخل اليهود فى المدينة فى زمرة الأعداء والمتآمرين على الرسالة والرسول وبلغ بهم الأمر أن حاولوا قتل رسول الله لما خرج إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية العامريين اللذين قتلهما عمر ابن أميه، فقال بعضهم لبعض:

لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن فمن يظهر - يصعد - هذا البيت فيرميه بصخرة فيريحنا منه، فقال رجل منهم:

أنا. فنزل الوحى على الرسول بالأمر والمؤامرة. فانصرف عنهم،،فنزل قوله تعالى:

"يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم" (سورة المائدة)

- ٣ -

مواقف كثيرة تعرض لها الرسول للمؤامرات مما حتم اتخاذ حرس لرسول الله ولما قدم رسول الله المدينة كان سيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول لا يختلف عليه فى شرفه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره حتى جاء الإسلام ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه شريف مطاع، هو ابن عامر عبد عمرو بن صيفى، وكان قد ترهب فى الجاهلية، ولبس المسوح، فكان يقال له الراهب فشقيا بشرفهما وحسدهما لرسول الله عليه.

فأما عبد الله ابن أبى فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم. فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام زاد حقده ورأى قومه قد أبو إلا الإسلام ولرسول دخل فيه كارها على نفاق وحقد وضغينة.

وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه فخرج من المدينة ومعه خمسون رجلا من أتباعه، مفارقا للإسلام ولرسول الله فقال رسول الله: الراهب ولكن قولوا: الفاسق، فكان أبو عامر وهو فى المدينة أتى رسول الله فقال: ما هذا الدين الذى جئت به؟ فقال رسول الله جئت بالحنيفية دين إبراهيم قال فأنا عليها فرد عليه رسول الله: إنك لست عليها قال بلى إنك يا محمد أدخلت فى الحنيفية ما ليس لك منها قال له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ما فعلت، ولكن جئتكم بها بيضاء نقية.

وهاجر أبو عامر إلى مكة ليعيش مع المشركين فيها ليتآمروا على رسول الله ولقد كان أول المحاربين لرسول الله فى "أحد".

وابن سلول كان فى "أحد" داعية الخيانة، وكان أبو عامر بن صيفى فى مكة يقول لقريش: إن حربا لو قامت ورأى أهل المدينة من الأوس مكانا مع قريش فسوف يخرجون جميعا من صفوف محمد إلى صفوف قريش، ولن يبقى مع محمد أحد منهم فلما نشبت معركة أحد كان أبو عامر أول من برز لهم وأخذ ينادى.

يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، فردوا عليه:

لا مرحبا بك ولا نعم الله بك عينا يا فاسق فلما سمع كلامهم، قال لقد أصاب قومى بعدى شر وأخذ يقاتلهم قتالا شديدا، ويرميهم بالحجارة.

وكان هو وراء مؤامرة مسجد الضرار الذى دعا جماعة من المنافقين رسول الله للصلاة فيه، بقصد اغتياله فحفظه الله ونجاه من شرهم.

– ٤ –

كان لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه جملة من الموالى منهم: ثوبان (–٤٠هـ) وشقران الحبشى وسلمان الفارسى وأبو كبشة وفضالة ومهران وكان أنس ابن مالك خادم رسول الله.

وكان لرسول الله كذلك خدم أنس. وبركه وأم أيمن.
وكان يحرس رسول الله فى "بدر": سعد بن معاذ.
وفى أحد محمد بن سلمة.
وفى "غزوة الخندق": الزبير.
وفى "الحديبية": المغيرة بن شعبة.
ومن حراسة صلوات الله وسلامه عليه:
عباد بن بشر وكان قيس بن سعد بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير (٦٥/١ زاد المعاد)

وكان أبو طلحة الأنصارى كذلك يقوم بمنزلة أعمال الحراسة بين يدى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقد قام بذلك أيضا فى غزوة أحد فكن يرمى ورسول الله يسوى لـه النصال ويجمع له السهام، وكانت زوجة أبى طلحة هى أم سليم بنت ملحان، وقد اشتركت مع زوجها فى "غزوة حنين" وفى القتال وإسعاف الجرحى.

- ٥ -

وقصة اليهودية التى وضعت السم فى الشاة المشوية قدمتها لرسول الله لتغتاله معروفة، وقد أكل منها الرسول وأكل معه بشر بن البراء فمات بشر بالسم ولكن رسول الله لفظ ما أكل فمرض واستمر يعاوده المرض، حتى ليروى أنه مات بسبب ذلك، وحكى ابن إسحاق أن المسلمين الأولين كانوا يرون أن رسول الله مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة (٢٠٩ الشفاء للقاضى عياض).

وقد حاول عمير بن وهب وصفوان بن أميه اغتيال رسول الله بعد "غزوة بدر".

وكان عمير شيطانا من شياطين قريش وممن كانوا يؤذون رسول الله وأصحابه ويلقون منه شدة، وكان ابنه فى (بدر) من أسرى المعركة فجلس عمير فى الحجر بعد (بدر) فى يوم من الأيام فذكر مصاب أهل (بدر) من قريش. فقال له صفوان:

والله ما فى العيش بعدهم من خير.

فرد عليه عمير: صدقت والله: أما والله لـولا ديـن علـى ليس عندى له قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله.

فاغتنم صفوان الموقف وقال له: أنا على دينك أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا.

عميـــر: اكتم على ذلك.

صفوان: أفعل ذلك.

عمير: يشحذ سيفه ويسقيه السم وخرج إلى المدينة.

فبينما عمر فى جماعة من المسلمين يذكرون ما كرمهم به الله من النصر. إذ نظر فرأى عمير قد دخل المسجد النبوى متوشحا سيفه فقال: هذا عمير عدو الله ما جاء إلا لشر وقال لرجل من الأنصار: ادخلوا فاجلسوا عند رسول الله واحذروا عليه من هذا الخبث أن ينال الرسول بشر فإنه غير مأمون، ودخل عمير على رسول الله مدعيا أنه جاء لفداء ابنه الأسير وعمر أخذ بحماله سيف عمير فى عنقه فقال رسول الله لعمر: أرسله يا عمر ثم قال يا عمير: ادن منى يا عمير، فدنا، فقال له الرسول: ما جاء بك يا عمير؟ فقال: جئت فى الفداء، فرد عليه الرسول: اصدقنى يا عمير ما الذى جئت له؟

قال ما جئت إلا لذلك قال له صلوات الله وسلامه عليه: بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر وتحاورتما فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لصفوان لولا دين على عيالى عندى لخرجت حتى أقتل محمدا فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له والله حائل بينى وبينك وبين ما تريد. قال عمير: أشهد أنك رسول الله قد كنا يا رسول الله كذلك وإنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله وأنا أحب أن تأذن لى حتى أقدم مكة فادعوهم إلى الله عز وجل فأذن له الرسول فلحق بمكة.

وكان صفوان حين خرج عمير إلى المدينة يقول لأهل مكة:

أبشروا بواقعة تأتيكم الآن فى أيامكم تنسيكم وقعة بدر يريد اغتيال رسول الله وكان صفوان يخرج إلى ضواحى مكة يسأل الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلام عمير فحلف ألا يكلمه أبدا.

وقال أنس: هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله، فأخذوا فعفا عنهم الرسول.

وعن فضاله بن عمرو قال: أردت قتل رسول الله عام الفتح، وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه قال: أفضاله؟ قلت. نعم قال فضاله: لا شىء فضحك الرسول واستغفر لى، ووضع يده على صدرى، فسكن قلبى.

وعن الحكم بن أبى العاص قال: تواعدنا على قتل النبى، فلما رأيناه سمعنا صوتا خلفنا ما سمعنا مثله فوقعنا مغشيا علينا، فما أفقنا حتى قضى رسول الله صلاته ورجع إلى أهله وحاول أبو جهل رمى رسول الله بصخرة شديدة اغتيالا له فنجاه الله من شره.

وحاول رجل من بنى المغيرة قتل رسول الله فطمس الله على بصره فلم ير رسول الله. ومحاولات كثيرة أخرى، وكل ذلك مما اقتضى حراسة رسول الله وهذه الحراسة عامة يشترك فيها المسلمون جميعا، وبخاصة كما رأينا فى وجود حراس مخصوصين لرسول الله يقومون بحراسته.

ولما نزل قوله تعالى: "والله يعصمك من الناس" (صرف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حراسه، كما تذكر بعض الروايات)،

وفاة الرسول صلوات الله عليه

وحم القضاء.

وأتى أمر الله.

وحان انتقال الرسول الأعظم إلى ربه. إلى الرفيق الاعلى مرض رسول الله صلوات الله عليه مرضا شديدا فزلزل المسلمون زلزالا شديدا ورع المسلمون لمرض الرسول. وشغلهم ذلك عن كل شيء حتى عن الجيش الذى كان رسول الله (ص) قد أعده لتأديب الروم. بقيادة أسامة بن زيد.

.. وراح الجميع يتتبعون أنباءه في قلق ولهفة لا يوصفان .. ولعل مما ضاعف هذا القلق كون بعض المحيطين برسول الله من جملة الصحابة كانوا يتوقعون قرب فراقة صلى الله عليه وسلم، فهذا عمر رضى الله عنه يسمع رسول الله ﷺ يتلو في آخر حجة قول الله تبارك وتعالى "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ..".

فلا يتمالك أن يبكى لأنه أحس أن وراء التمام النقصان، وقبل ذلك بكى العباس حين استمع إلى رسول الله كذلك يقرأ" إذا جاء نصر الله والفتح .." لأنه شم من خلالها فراق الحبيب الأعظم، وقد كان تصريحه ﷺ في جمرة العقبة أوضح دلالة من كل ذلك إذ وجه كلامه إلى الجمع الغفير من المسلمين قائلا: "خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا:"

وذات مرة خرج على رضى الله عنه من عند رسول الله باش الوجه فاقترب منه الناس يسألونه، فبشرهم بكل خير ولكن عمه العباس كان يرى غير هذا وأن رسول الله ﷺ في ساعاته الأخيرة.

وشاءت حكمة الله عز وجل أن ينتقل الرسول الى الرفيق الاعلى ..

حيث وافاه الأجل وهو في حجر عائشة وما ان سرى النبا حتى صعق الناس. وفقدوا صبرهم. وارتفعت اصوات تقول: لا تدفنوه فانه حي.

بل إن هول المفاجأة قد ضعضع وعى عمر نفسه، الذى كان يتوقع الكارثة منذ يوم عرفه فإذا هو يصرخ فى الناس:

"... إن رسول الله ﷺ ما مات .. ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى .. ووالله ليرجعن كما رجع موسى" وفى هذه اللحظات وصل الصديق من ناحية السنح خارج المدينة، فدخل المسجد لا يتكلم، ومر بجموع المسلمين وهم يبكون ويموجون حتى انتهى إلى مضجع رسول الله ..

فلما تحقق من وفاته عاد إلى الناس ليعالج ذهولهم بأبلغ ما يتصوره العقل فى هذا الموقف "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت" ثم أخذ يتلو عليهم قول الله تعالى:

"وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين".

فكأن الناس لهول الصدمة لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها الصديق، فتلقوها منه، فما تسمع بشرا من الناس إلا يتلوها ..

وقد روى عمر قصة ذلك اليوم فقال:

والله ما هو الآن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى، وحتى أهويت إلى الأرض ..

وعرفت أن رسول الله قد مات.

الشعر فى رثاء رسول الله ﷺ

- ١ -

الشعراء الذين رثوا النبى الكريم كثيرون. ومنهم:

١ - أبو بكر الصديق.

٢- حسان بن ثابت.

٣- كعب بن مالك.

٤- أروى بنت عبد المطلب.

٥- عاتكة بنت عبد المطلب.

٦- صفية بنت عبد المطلب.

٧- هند بنت الحارث.

٨- عاتكة بنت زيد.

٩- بركة أم أيمن.

١٠- هند بنت أثاثة.

- ٢ -

وهذه من نصوص مما قالوه فى رثاء أكرم خلق الله (ﷺ).

للصديق أبى بكر (رضى الله عنه) ثلاث قصائد مطلع الأولى منها:

يـــا عيـــن فابـــكى ولا تســـأمى

وحـــق البـــكاء علـــى الســـيد

إلى أن قال:

فليـــت الـمـــمات لـــنـــا كلـــنـــا

وكـــنا جميـــعا مـــع المهـــتدى

وقال في الثانية:

لمـــا رأيـت نبيـنـا متجـــدلا

ضاقـت علـى بعرضهـن الـدور

وارتعــت روعـة مسـتهام والـه

والعظـم مـني واهـن مكسـور

وقال في الثالثة:

بـاتـت تـؤوبـنى همـوم حشـد

مثل الصخور فأمست هدت الجسـدا

ليت القيامـة قامـت بعـد مهلـكه

ولا نـرى بعـده مـالا ولا ولـدا

أما حسان بن ثابت وهو شاعر الرسول (ﷺ) فله في رثائه خمس قصائد منها قوله:

والله ما حملت أنـثى ولا وضعـت

مثل النبى رسـول الأمـة الهـادى

خيـر البريـة إنـى كنـت فـى نهـر

جار فأصبحت مثل المفرد الصادى

وقال أيضا من قافية أخرى:

مـا بـال عينـك لا تنـام كـأنـما

كحلـت مآقيـها بكحـل الأرمـد

جزعا على المهـدي أصبـح ثاويـا

يا خير من وطـئ الحصـا لا تبعـد

وقال أيضا من قافية أخرى:

يا عين جودى بدمع منـك أسـبال

ولا تمـلن مـن سـح وإعـوال

لا ينفذن لـي بعـد اليـوم دمعكـما

إنى مصاب وإنـى لست بالسالى

ويقول أيضا من قافية أخرى

نب المساكين ان الخير فارقهم

مع الرسول تولى عنهم سحرا

من ذا الذى عنده رحلى وراحلتى

ورزق أهلي إذا لم نؤنس المطرا

أما كعب بن مالك فقد أثبتت له مراجع السيرة قصيدة واحدة يقول فيها:

يا عين فابكى لدمع ذرى

لخير البرية والمصطفى

على خير من حملت ناقة

وأتقى البرية عند التقى

أما أروى بنت عبد المطلب فقد أثبتت المراجع لها قصيدتين تقول فى إحداهما:

ألا يا عين ويحك أسعدينى

بدمعك ما بقيت وطاوعيني

ألا يا عين ويحك واستهلي

على نور البلاد وأسعديني

وتقول فى الثانية:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا

وكنت بنا برا ولم تك جافيا

أما عاتكة بنت عبد المطلب فقد أثبتت لها المراجع ثلاث قصائد تقول فى إحداها:

يا عين جودى ما بقيت بعبرة

سحا على خير البرية أحمد

إلى أن قالت:

فعليك رحمة ربنا وسلامه

يا ذا الفواضل والندى والسؤدد

وقالت في إحداهن:

أعيني جودا بالدموع السواجم

على المصطفى بالنور من آل هاشم

أما صفية بنت عبد المطلب فقد أثبتت لها المراجع سبع قصائد ترثي بها المصطفى(ﷺ).

لهف نفسي وبت كالمسلوب

أرق الليل فعلة المحروب

وتقول من قافية أخرى:

أفاطم ابكي ولا تسأمي

بصحبك ما طلع الكوكب

هو المرء يبكى وحق البكا

هو الماجد السيد الأطيب

وقالت من قافية أخرى:

أرقت فبت ليلى كالسليب

لوجد في الجوانح ذي دبيب

لفقد المصطفى بالنور حقا

رسول الله مالك من ضريب

وقالت من قافية أخرى:

عين جودي بدمعة تسكاب

للنبي المطهر الأواب

رحمة الله والسلام عليه

وجزاه المليك حسن الثواب

وقالت من قافية أخرى:

عين جودى بدمعة وسهود

واندبي خير هالك مفقود

وقالت هند بنت الحارث:

يا عين جودي بدمع منك وابتدري

كما تنـزل مـــاء الغيـــث فانشعــبا

لقــد أتتــنى مـــن الأيــام معضـــلة

أن ابن آمنـــة المأمــون قــد ذهــبا

وقالت عاتكة بنت زيد:

أمســـت مــراكبـــه أوحشـــت

وقـــد كـــان يــركبـــها زينـــها

وأمســـت تبـــكي علــى ســيـد

تـــردد عـبــرتـــها عينـــها

وقالت بركة أم أيمن وقد كانت حاضنة رسول الله (ﷺ) بعد موت أمه ولذلك كان يقول لها (ﷺ) "أنت أمي بعد أمي".

عيـن جودى فـإن بـذلـك للـــدم

(ع) شـــفاء فـأكـثـرى (م) البـكاء

حين قالوا الرســول أمســى فقيــدا

ميتا كـــان ذلـــك كـــل البـــلاء

الهــــوامـــش

(*) جاء فى الروض الآنف أنه لا يعرف العرب من تسمى باسم محمد قبله (ص) غير ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد (ص) وبقرب زمانه وأنه يبعث فى الحجاز أن يكون ولدًا لهم، وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق ومحمد بن أحيحة بن الحلاج بن الجريش من الأوس ومحمد بن حجرا وزنن ابن ربيعة، حيث نذر كل واحد من هؤلاء الثلاثة إن ولد له ولد أن يسميه محمدًا بعد علمه باقتراب ظهور نبى مرسل.

١- ارتجس: ارتجف واهتز.

٢- الموبذان عند المجوس كقاضى القضاء عند المسلمين.

٣- المرازبة: جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع.

٤- ٢٣٩ بشائر النبوة الخاتمة - د. رءوف شلبى - مجمع البحوث الاسلامية بالازهر.

٥- ويروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم - قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط. والقراريط: أجزاء من الدراهم أو الدنانير - وقيل هى لموضع (دلائل النبوة ٥٥ج١ - والسيرة الحلبية - ١٥٠/١ - وفتح البارى ٣٤٧/٥) - والوفا ج١ ص١٤٢.

٦- راجع: البخارى باب رعى الغنم على قراريط - ابن كثير ١ ص٢٦٥ - الوفا ١: ١٤٢.

٧- الروض الأنف ١١٢/١ - وراجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١٢٥/١.

٨- الوفا ١٤٢/١.

٩- ص٩٥ بشائر النبوة الخاتمة - د/ رءوف شلبى من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ١٩٨٨م.

١٠- ص٩٥ بشائر النبوة الخاتمة - رءوف شلبى نقلا عن السيرة الحلبية ٢١٧/١ - فى رواية مسلم ٥٦٩/١ وفى رواية السيرة لابن كثير ٤٤٢/١: عمرو بن عبسة بدلا من

عنبسة. - وراجع مسند أحمد ١١١/٤ - والشيخ دحلان في سيرته: يروى: عمرو بن عبسة.

١١- أي مجالسها.

١٢- سورة الرحمن آية ١، ٢.

١٣- أي السورة.

١٤- قتل في معركة صفين، وكانت في صفر وبعض ربيع الأول عام ٣٧هـ عن ٩٣ عام ٢٩١ - ١/٣٠٦ سير أعلام النبلاء الذهبي) وكان خليف بني مخزوم.

١٥- في هذه الفترات التاريخية الحاسمة في جزيرة العرب كان الصراع بين الروم والفرس على حدود الجزيرة العربية شديدا.

التجأ كسرى أبرويز إلى الروم فارا من بهرام الذى استولى على عرش والده هو من الساساني، وتلقاه امبراطور الروم البيزنطي موريقي بالحفاوة، وساعد على عودة خسرو إلى العرش الفارسي عام ٥٩٠م وفي عام ٦٠٢م قامت ثورة على الامبراطور الرومي وتولى فاكس الحكم في بيزنطية فخاصمه كسرى وأعلن الحرب عليه عام ٦٠٣م - واحتلت جيوش كسرى بلاد الشام وبيت المقدس ومصر واستولت على المستعمرات الرومية في شواطئ أفريقية كما استولت على آسيا الصغرى وأقامت في مواجهة القسطنطينية. فثار هرقل حاكم أفريقية ضد امبراطوره فاكس وقتله، وتسلم الملك مكانه عام ٦١٠م وهو عام البعثة النبوية وبلغت الانتصارات الفارسية ذروتها وغلب الروم كليا عام ٦١٦م قبل الهجرة بست سنوات، وفقدوا مملكتهم الرومية على أيدي الفرس.

١٦- توفي عام ٣٤هـ - ٦٥٤م عن عام ٧٢.

١٧- ١: ١٣٩ سير أعلام النبلاء.

١٨- هي ليلة السابع والعشرين من صفر من العام الثالث عشر للبعثة.

١٩- باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين عينين ينصب عليها باب.

٢٠- جنوبي مكة على ثلاث أميال منها.

٢١- أتت رسول الله وأبا بكر بسفرتهما. فلما أرادت أن تعلق السفرة اذ هى ليس فيها (عروة) فشقت نطاقها اثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر. فسميت ذات النطاقين.

٢٢- من جلة الصحابة، روى عنه ابن عباس وجابر والمسيب وطاووس ومات فى أول خلافة عثمان عام ٢٤هـ.

٢٣- بين الطائف ومكة.

٢٤- الصحيح أن ذلك في اليوم العشرين من سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية وهو الثامن من ربيع الأول.

٢٥- يريد بهم الأنصار. شعوا باسم جدة لهم.

٢٦- توفى بعد قدوم رسول الله المدينة. فهو أول من مات من الانصار بعد الهجرة ثم مات بعده بن زرارة، وسعد بن خيثمة.

٢٧- إحدى محال المدينة.

٢٨- كانت أول خطبة جمعة بالمدينة أى قباء على ما أرجح كما يروى هى: الحمد لله - أحمده، وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأومن به ولا اكفره وأعادى من يكفره .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة، فى فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمن ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصه فقد غوى، وفرط، وضل ضلالا بعيدا.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرا، وإن تقوى الله يؤتى مقته، ويوفى عقوبته وأن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضى الرب: ويرفع الدرجة.

ويقال: إن رسول الله ﷺ أقام بقباء أربعة عشر يوما حيث أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام، ووصول رسول الله إلى المدينة كان يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع على أصح الأراء .. ويذكر الطبرى أن قدوم رسول الله

المدينة يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول (٩٥/٢) والصحيح أن يوم الإثنين أول ربيع الأول والإثنين الذى بعده كان يوم ٨ وهو يوم وصول الرسول قباء.

٢٩- وهكذا تمت الهجرة، ويقال إن وصول رسول الله إلى المدينة كان لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة المحمدية. وذلك يوافق ٢٨ من يونيو ٦٢٢م.

ويرى عن ابن عمر قال: قال أهل المدينة لرسول الله: ادخل المدينة راشدا مهديا. فدخلها وخرج الناس ينظرون إليه، كلما مر على قوم قالوا: يا رسول الله ها هنا، فقال: دعوها فإنها مأمورة، يعنى الناقة، حتى بركت على باب أبى أيوب (٢٩١: ٢ سير أعلام النبلاء - الذهبى).

ومات أبو أيوب عام ٥٢هـ، ودفن بأصل حصن القسطنطينية (٢٨٨ - ٢٩٦سير النبلاء).

وقد خص رسول الله أبا أيوب بالنزول عليه فى بنى النجار إلى أن بنت له حجرة أم المؤمنين سودة وبنى المسجد الشريف (٢٨٨: ٢ سير أعلام النبلاء).

ومنذ ذلك اليوم أطلق على يثرب اسم المدينة أى مدينة النبى، كما أطلق على ذلك اليوم اسم يوم الهجرة وقد مثل هذا اليوم مفترق طريق فى حياة النبى وفى تاريخ الإسلام.

هذا التاريخ ٢٨ يونيو ٦٢٢م أصبح نقطة انطلاق لأيام الإسلام، وتم اختياره كبداية لحولية تاريخية جديدة، وتبعا لهذه الحولية أصبحت سنة المسلم هى السنة القمرية، وهى تتألف من ستة شهور مدة كل منها ٢٩ يوما وستة أخرى مدة كل منها ٣٠ يوم فيكون مجموع أيام السنة القمرية ٣٥٤ يوما. كما يكون الفرق بين القرن الهجرى والقرن الميلادى فوق ثلاث سنوات.

٣٠- وعن أبى رهم أن أبا أيوب حدثه أن رسول الله نزل فى بيتنا الأسفل وكنت فى الغرفة، فقمت أنا وأم أيوب نتتبع الماء بقطيفة لنا، ونزلت فقلت: يا رسول

الله لا ينبغي أن نكون فوقك. انتقل إلى الغرفة. فأمر بمتاعة فنقل ومتاعه قليل (٢٩١: ٢ سير أعلام النبلاء).

٣١- كانت قريش قد نهبت جميع أموال المسلمين المقيمين في مكة، فوق ما فعلته بهم من قتل وتعذيب وتشريد ونفي طوال عشرة أعوام فلم يكن تعرض المسلمين بأمر الرسول لقوافل تجارة قريش أمر عجبا بل كان أدنى ما تتطلبه العدالة والقصاص. فوق ما كانت قريش دائبة عليه آنذاك من محاربة الإسلام وبث الدعايات ضد الرسول والمسلمين.

٣٢- أي تفرقت وتفتت.

٣٣- أي قطعة.

٣٤- موضع في أقصى اليمن، أو هو في أقصى "حجر".

٣٥- جمع فلذة كقطعة في الوزن والمعنى.

٣٦- القيان: الجواري المغنيات.

٣٧- كان في القافلة مع أبي سفيان بمال وتجارة لبني زهرة.

٣٨- التغوير: الطمس والدفن. والقلب جمع قليب وهو البئر.

٣٩- أي تعاديك وتشق عصا الطاعة عليك.

٤٠- السحر، كالنحر، هو: الرئة.

٤١- انشد: اطلب - الخفرة: مثل الحمرة: العهد.

٤٢- من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا، ومن الأوس واحد وستون رجلا. ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا.

٤٣- وفي يوم بدر اسلم أبو الدرداء عزير بن زيد. وقد عاش حتى مات قبل مقتل عثمان (٢٤١/٢ - ٢٥٥ سير أعلام النبلاء).

٤٤- صنع له القرى، وهو الطعام الذي يقدم للضيف.

٤٥- هو القمح والشعير مطحونا. وقد يمزج باللبن والعسل والسمن.

٤٦- توفي عام ٤٢هـ عن ٧٧ سنة (٢: ٢٦٦ - ٢٦٩ سير أعلام النبلاء).

٤٧- قتل أبو دجانة فـي موقعة اليمامة عام ١٢هـ وموقفه يـوم أحد معروف (١٧٥ - ١/١٧٧ سير أعلام النبلاء/ ٣٧١ تاريخ الإسلام الذهبي. الطبقات لابن سعد. ٣/٢: ١٠١/٣٠٢ أسد الغابة، ٥٧/٧ الإصابة).

٤٨- قتل أبو دجانة سماك الساعدى الأنصارى يوم اليمامة عام ١٢هـ. وقتـل معه زيد ابن الخطاب (١: ٢١٧ سير أعلام النبلاء للذهبى).

٤٩- ٢: ٢٠٠ - ٢٤ سير أعلام النبلاء.

٥٠- بريد حمزة.

٥١- هو صؤاب، غلام أبى طلحة.

٥٢- شج وجه النبى صلى الله عليه وسلم: فى جبهته عبد الله بن شهاب الزهرى وجرح وجنته ابن قميئة. فدخلت حلقتان من حلق المغفر فيها.

٥٣- الفرى مثل الفرح: مكيال يسع ستة عشر مدا.

٥٤- وفى رواية أخرى: أن رسول الله قال له: قد أظن أنه إنما يمنعك من الدخول فى الدين غضاضة تراها من حولى، وإنك ترى الناس البا واحدا.

هل رأيت الحيرة؟ فيقول عدى: لم آتها، وقد علمت مكانها.

فيقول له الرسول: يوشك أن تخرج الظعينة منها، بغير جواره. حتى تطوف بالبيت ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز..

ويملك التعجب من عدى كل أقطار نفسه، فيقول لرسول الله فى استغراب شديد: كسرى بن هرمز!! ويقول له الرسول: نعم.

ويستمر الرسول فى حديثه لعدى: وليفضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته. (الإصابة لابن حجر) ص٨٦.

الفهـــرس

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٣٥٤٤٣٨ - إسكندرية